

محمد البساطي

المقهى الزجاجي و الأيام الصعبة

روايتان

محمد البساطي

المقهى الزجاجي

و

الأيام الصعبة

«روايتان»

الطبعة الأولى : دار بن رشـــد – بيروت ، ١٩٧٩

الطبعة الثانية : مطبـــوعات القـــاهرة ، ١٩٨٢

الغلاف للفنان : مصطفى فياض

الى زوجتى

« محمد البسـاطى »

الطقس الزجاجي

(١)

اعتدنا فى الناحية ان نسميه بالمقهى الكبير · وقليلون فى قريتنا الذين كانوا يسهرون فيه · كانوا ياخذون قطار المغرب ويعودون فى وقت متأخر من الليل ·

كان المقهى على محطة السكة الحديد بالمركز · يفصله عن القضبان ساحة واسعة كانت دائما نظيفة ومبللة خفيفا كأنما مسها مطر رقيق وعلى جانب المقهى يمتد صف متناسق من الأشجار الصغيرة كانت تزدهر أحيانا بزهور بنفسجية · ويرتفع المقهى عن الأرض بخمس درجات سلم · وكانت واجهته وجانبه المطل على المحطة من الزجاج المحبب يمتد على هيئة نوافذ عريضة من السقف حتى المنتصف حيث يرتكز على قاعدة من الخشب المضلع · وفى الداخل كانت المرايا تكسو الفراغات بين النوافذ بارتفاع الجدران · وكانت أيضا تحيط بمنتصف الأعمدة · وفوق درجات السلم والطرقة الخارجية مدت مشايات فى لون احمر غامق · وأمام المقهى كانت مربعات من الحصى الابيض تتخذ شكل دائرة كبيرة فى وسطها مربع من الحصى الاسود ·

عادة تكون الحركة خفيفة بالمقهى فى النهار ، والستائر مسدلة على الزجاج الجانبى · كان له زبائنه · وقليلا ما كانوا يأتون خلال النهـار · ورغم قربه من المحطة كان الاهـالى يفضلون انتظار القطارات فى المقاهى الصغيرة بالشوارع الجانبية ·

وفى الليل تضاء الشمعدانات الضخمة فى السقف والنجفات الصغيرة المعلقة بالاركان · ويبدو المقهى من الداخل كبهو قصر كبيـر ·

وبعد صلاة العشـاء تهدأ الحركة أمام المحطة · ويخلو المقهى من المتطفلين ، وتفوح رائحة بخـور خفيفة · وتغطى المناضـد بمفارش ناصعة البياض · ويبدأ الزبائن المجىء · كان اكثرهم من وجهاء الناحية وكبار التجار والموظفين · كانوا يأتون فى عربات الحنطور التى تدور دورة واسعة فى الساحة وجرسها يرن رنينـا متواصلا حتى تقف فى الضوء القوى أمام باب المقهى ·

كانوا يجلسون فى مجموعات حول المناضد · واحيانا يلعبون الدمينو أو البوكر · وكان طبيب الصحة ماهرا فى البوكر · وكان اللاعبون يأتون اليه من المراكز المجاورة · وفى مثل هذه الليـالى يظل المقهى مضيئا حتى الفجر · وينتقل اللاعبون الى الحجـرة الداخلية · وتكف المجموعات الاخرى عن اللعب · ويلتفون صامتين حول اللاعبين ·

كان المقهى هادئا رغم ازدحامه · ولم يسمع يوما ضجـة تترامى الى الخارج · وكان هؤلاء الذين اعتادوا على الصـخب والضجيج يجدون أنفسـهم حين يصبحون فى الداخل وقـد أخذوا يتحدثون فى هدوء · ربما كانت تلك الاضواء الباهـرة الموزعـة بامتداد الجدران والسقف · وربما اتساع المقهى ووجود هذا العدد الكبير من وجهاء الناحية فى مكان واحد ·

كانوا يفضلون الكونياك · وكان المقهى مشهورا فى الناحية بأصناف البراندى والكونياك المعتقة · والمخزونة بكميات كبيرة فى قبو تحت أرض المقهى · وكان الخواجة صاحب المقهى يحدثهم مع بداية السهرة عن فوائده العظيمة حين يعودون الى بيوتهم :

ـ العـرق ·

ويشير الى يده البيضاء الشاحبة ·

ـ هنا · انظر · تنتفخ خضراء ·

كانت عربيته ركيكة · وقليلا ما سمعوه يتحدث التركية · وكان وحده يستطيع أن يستخدم فى حديثه ـ دون خجل ـ الكلمات السوقية والشتائم · يفعل ذلك على سبيل المداعبة أو ملطفا من الجو المحتدم أثناء اللعب · وأحيانا كان يفاجئهم باكتشافه لشتمة جديدة · فيهللون له · ويبدى هو زهوا شديدا · ويقول :

ـ هذه · انكم لم تسمعوها ابدا · دفعت فيها كأس براندى ·

وحين يرى انهم كانوا يعرفونها · كان يزم شفتيه ويقـول بلهجة المخدوع : ـ

ـ آه · غشنى الحمار الملعون ·

كان يحتفظ لهم بأوراق لعب خاصة بلا خدوش أو علامات · كؤوس من البلور يضعها فى دولاب صغير خلف مكتبه المرتفع · كان ينتقل من مجموعة لاخرى في خطوات بطيئة مرتعشة · ويقف وراءهم صامتا · ويختار دائما الاوقات التى يداعبهم فيها · وقد يرفع أحدهم رأسه ويغمز له ويدعوه للحديث · غير انه يسبل عينيه مبديا احترامه للصمت بينهم ·

ويقولون انه عندما جاء من بلده كان عجوزا أيضـا · وكان يعرف من العربية سوى كلمتين : سلام عليكم · ومتشكر ·

وقد تهدلت الآن كتفاه الضخمتان · وانطفأ بريق عينيه ، ويوما كانوا كثيرين فى الناحية · وكانت لهم عربات حنطور مكشوفة يتجولون بها على الطرق الزراعية · وعندما بدأوا يرحلون ·· جاء هو · كانت هناك بعض الاسر التى لم ترحل · كانوا يقولون « وماذا نفعل هناك ؟ » ·

انهم قليلا ما يتذكرون الشوارع والبيوت فى بلادهم · ولابد انها قد تغيرت الآن كثيرا · واصبح الناس غير الناس · وكان هؤلاء الذين ولدوا هنا أو جاءوا صغارا – حين يسمعون الكبار يتحدثون عن ذكرياتهم القديمة – لا يستطيعون أن يتخيلوا تلك البلاد الغريبة ·

ولانهم لن يرحلوا · فقد اخذوا يشترون الارض · وكانوا يتاجرون أيضا ويكسبون وبنوا بيوتا جميلة متجاورة خارج البلدة ، كانت من دورين وحولها حدائق مسورة · يصعد اليها طريق قصير يتفرع من الطريق الزراعى · تظلله من الجانبين أشجار الجازورين والتوت ·

يصعد الطريق بطيئا متعرجا بين قنوات المياه الكثيرة · وهناك حيث ينبسط المرتفع ·· كانت البيوت تتناثر بين اشجار الكافور الكثيفة · وكان الاهالى – عندما يسيرون فى الليالى المقمرة على الطريق الزراعى – يرون ضوء النوافذ يتسرب فى شعاعات كثيرة متفرقة خلال فروع الاشجار · واطراف الحشائش تهتز خفيفا فى مسار الضوء · ومياه القنوات تضوى بالانعكاسات · وكانوا يصعدون الطريق · ويجلسون على الشطوط القريبة ينصتون للغناء يترامى اليهم من النوافذ المفتوحة · ما كانوا ليفهموا شيئا من كلمات الاغنية · غير أنهم يحسون عذوبة الغناء فى الليل والخلاء حولهم · ويبدأ الغناء رتيبا بايقاع واحد · ثم يرتفع تدريجيا مهللا · وتدخل اصوات أخرى · ويصبح الصوت عريضا شجيا · ويتصاعد

النغم فى النهاية محملا بالاسى · ثم ينخفض حتى يكاد يختفى ويعود الصوت المنفرد مبحوحا مرتعشا كحشرجة خافتة ·

وكان الاولاد من الاهالى يخرجون فى مجموعات · ويصعدون الطريق · ويتسللون بين اشجار الكافور بحثا عن « الخواجات الصغار » · وعندما لا يعثرون عليهم بين الاشجار · كانوا يتسلقون الأسوار · ويرابطون فوقها حتى يخرج الخواجات الصغار الى حدائق البيوت · فيصيحون :

ـ امان يا خواجه · أمان ·

ويندفع الخواجات الصغار وهم يزومون فى غضب بلهجتهم الغريبة والكلاب الصغيرة تسرسع وراءهم · ويقفز الاولاد صاخبين بين الاشجار ·

وأحيانا كانوا يقيمون الزينات فوق المرتفع · كانوا يقضون الأيام فى اعدادها · ويتسكع الأهالى على الجسور القريبة يرقبونهم فى فضول وهم يمدونها بين الاشجار · ويصبح الطريق فجأة ملونا · وعند ملتقى الطريق الزراعى كانوا ينصبون الأعمدة الخشبية على هيئة بوابة ويكسونها بنسيج ملون لامع · ويعلقون لافتة كبيرة من القماش نسجوا فى وسطها بخيوط ملونة كلمات من لغتهم ·

وكان اقاربهم فى البلاد الصغيرة المجاورة يفدون مجموعة وراء الاخرى · ويصعدون الطريق فى ضجة صاخبة · ويمتلىء المرتفع بعربات الحنطور المتناثرة بين الاشجار · وتسطع الاضواء طول الليل فى النوافذ المفتوحة ·

ويقف الخواجة صاحب المقهى بالطرقة الخارجية · منصتا لاصوات الغناء والموسيقى تترامى من هناك · لقد زينوا المقهى

أيضـا بشرائط من النسيج الملون · كانت تمتـد متقاطعـة على الواجهة · ولافتة القماش بكلماتها المزخرفـة معلقـة فوق شرفة الباب · وكانت جوانب المقهى الخشبية مغسولة · والزجاج يتألق نظيفا · والخواجة يلبس سترته البيضاء وصديريته الحريرية وكانوا يسألونه فى المقهى : ـ

ـ ماذا يا خواجه · عندكم زيطة ؟

ـ آه · زيطة كبيرة ·

ـ أهو مولد السلطان ؟

ـ سلطان · لا · مولد ·

ويذكر أسما غريبا · ويسألونه :

ـ وماذا فعل ؟

ـ فعل شيئا عظيما · لابد انه فعل شيئا عظيما ·

ـ أسماء كثيرة يا خواجه تحتفلون بها · وكيف تتذكرونها ؟

ـ آه كثيرة ـ ويضحك ـ لم أسمع بها منذ كنت بالمدرسة · لا احد الآن يحتفل بها غيرنا هنا ·

انه فى مثل هذه اللحظات يبدو قريبا اليهم · ناعما · رقيقا · وكانوا يبتسمون له فى ود · ويربتون على يديه · ويقول واحـــد منهم :

ـ ومن يدرى · ربما كان فى زمانه فاجرا ابن زانية ·

ويغمز بعينه ضاحكا · غـير أن الخواجة كـان يضم طرفى سترته · ويتلفت حوله ثم يبتعد ·



٢

وكان يأتى الى المقهى رجل تركى عجوز · لم يكن له موعد ثابت · وقد يأتي فى يوم شديد الحرارة · أو يوم ممطر · واحيانا يختفى أياما طويلة · ثم يظهر فجأة لأيام متتالية · وفى كل مرة يأتى كان يبدو وكأنما قد ازداد ضمورا عن المرة السابقة · يقف على سلم القطار نحيلا مرتعشا · وحقيبة تحت ابطه · وعنـــدما يخرج من عتمة القطار الى ضوء الشمس كان وجهه الابيض المنمش يجفل فجأة · ويبدو للحظة مترددا · ثم يقطع الطريق القصير من المحطة الى المقهى دون أن ينظر حوله ·

وفى المرات الاخيرة · كان يأتى معه بصبى شاحب الوجه · يسير متعثرا بالحقيبة وراءه · كانوا يقولون انه حفيده · وكان الولد نحيلا مثله · وله نفس الاطراف الطويلة غير المستقرة ·

ويقف قليلا على السلم الخارجى للمقهى مستندا بيده على الدرابزين · والولد يقف وراءه ساكنا وقد ضم الحقيبة الى صدره · ثم يدفع العجوز الباب ويدخل · ويسير بين صفوف المناضد متجها

الى الركن المعتم قليلا · وفى طريقه كان يلقى بالتحية الى صاحب المقهى ـ عندما يكون جالســـا خلف المكتب ـ بهزة صغيرة من راسه · ويجلس هناك ويداه المعروقتان على سطح المنضدة ·

وينهض صاحب المقهى متجها اليه · وينظر الى احد الصبية الذين يعملون فى المقهى فينطلق الى الخارج ·

ويجلسون فى الركن صامتين · والعجوز القادم يحدق ساكنا وقد انفرج فمه قليلا نحو الباب الخارجى · وحفيده يجلس مضموم الساقين ويداه منقبضتان بينهما · ينظر طول الوقت الى اصابع جده وهى ترتعش على سطح المنضدة ·

ويقول صاحب المقهى : أهناك جديد ؟

ويومىء العجوز برأسه نحو الحقيبة · ويتمتم : يوجد ·

عادة يكون المقهى هادئا فى هذا الوقت من النهـــار · وقـد أسدلت الستائر الداخلية فوق الزجاج المواجه للشمس · فبـدت العتمة رقيقة بالداخل · وظلال تتراقص على المناضد · ويقـول صاحب المقهى :

ـ كنت تأكل شيئا أولا ؟

وينهض العجوز وحفيده ويتبعانه الى الحجرة الداخلية · وبعد أن ينتهيا من طعامهما · يكون الرجال الأتراك قد بدأوا يفدون · ويجذبون المقاعد الى منضدته · كان يعرفهم واحدا · واحدا · وكان ينتظر حتى يأتوا جميعــا · ويســـأل عن الغائبين · ثم يفتـح الحقيبة · ويخرج لفة من الجرائد التركية · ويأخذها الرجال · ويتصفحونها سريعا · ثم يلتفتون اليه · ويسحب أوراقا من احد

جيوب الحقيبة ويعدها امامه ثم يقرأ · كان صوته واضحا قويا · وكانت الاوراق تحتوى على اخبار الاتراك فى المدن الاخرى · بنت فلان قد تزوجت · وفلان مريض أو مات · وأحدهم افتتح متجرا جديدا · أو تفتيش زراعى ·

كانوا ينصتون لتلك الاخبار · ويتبادلون النظرات فى صمت· وعندما يسألونه عمن يعرفونهم · كان يقول :

ـ آه · رأيتهم ·

ويلحون فى السؤال · ويصمت قليلا · ثم يقول :

ـ لو حدث شىء · كنت حكيته قبل ان تسألوا ·

وكان يتوقف احيانا عن القراءة من الأوراق · ويأخذ فى سرد بعض الاخبار التى يبدو أنه تذكرها فجأة · وكانت هناك علامات كثيرة مختلفة بين السطور · وكلمات كتبت بخط دقيق على الهامش· وعندما يأتى الى اخبار هؤلاء الذين غادروا البلاد ·· كان يحكيها متمهلا · ويصمت بين الخبر والآخر محدقا فى وجوههم - وسرعان ما يثور النقاش بينهم يبداه واحد متمتما :

ـ آه · فعلها اذن وذهب ·

ـ كان يستطيع أن يقول لنا على الاقل ·

ـ يفعلون كل أمورهم فى السر · ونحن هنا نرسل اخبارنا أولا بأول ·

ـ وهل ترك أحدا من أولاده ؟

ـ وماذا يهم لو ترك ·

ـ انتظروا · ربما كان هناك آخرون · هل يوجد آخرون ؟

ويكون العجوز منحنيا على المنضـدة : وأصابعه المرتعشة تسوى اطراف الاوراق • وتستقر نظراته فى تردد على الوجـوه المتطلعة نحوه • ويقول فى هدوء :

ـ يوجـد •

ويذكر بعض الاسـماء • ويرددون الاسـماء وراءه ويرتفع الصخب مرة أخرى :

ـ وهذا أيضا • وكان يقول انه لن يرحل ابدا •

ـ وقال لى من أسبوعين فقط •

ـ لو استمر الامر هكذا •

ـ آه • لو استمر •

حين يعلو صياحهم •• كان يسبل عينيه فى هدوء • وتبدو ابتسامة خفيفة مرتعشة على وجهـه • وفيما مضى كان يرمقهم فى نفاذ صبر ، ويقول :

ـ دعونا مما تقولون • لن تفعلوا شيئا • اسمعوا •••

وهو ـ وقد طاف سنين طويلة بكل هذه المدن ـ يعرف الآن متى يجعلهم يحتدون • ومتى يجعلهم هادئين ، وقد يبطىء أحيانا ، ثم يتدفق فجاة • ويعلو صوته وينخفض • ويتوقف محدقا نحو زجاج المقهى المتالق بضوء النهار • ويغمغم بشىء ما فى صوت لا يسمع • واحيانا يدفع بمقعده للوراء ـ مجففا عرقه ـ ويدعك اذنيه بالمنديل فى بطء • ويبدو وكان صياحهم لا يعنيه • غير انه فى مثل تلك اللحظات كان يحس أيضا بكل الخيوط لا تزال فى يده ، وتبدو عيناه الباردتان غير المباليتين للحظة عابرة وكانما مسهما انفعال رقيق • ويسترخى وذراعاه الطويلتان معقودتان اسفل بطنه •

ويطوى الأوراق التى بيده جانبا • ويسحب أوراقا أخرى من الحقيبة • ويراهم وقد هدأوا •• ويقرأ • انها أخبار من جاءوا حديثا • ويذكر بعض الأسماء • ويصمت • وقد شبك أصابع يديه على سطح المنضدة • ويتمتم أحدهم :

ـ سبعة فقط ؟ سبعة يأتون • وفى المرة الأخيرة كانوا عشرة •

ـ وقبل ذلك كانوا بالمئات ما كنت أستطيع أن أحفظ أسماءهم •

ـ آه •• آه • وكم واحدا سافر ؟ ثلاثون •• أربعون أريد أن أعرف من ينظم كل ذلك •• من ؟

ـ دعونا أولا نعرف القادمين •

ـ وماذا تريد أن تعرف عنهم ؟

كان بعضهم ينهضون فجأة • ويقفون خلف الزجاج ويستمر النقاش بينهم هناك وينحنى العجوز على المنضدة ويسعل سعلة خفيفة وكأنها جاءت عفوا • ويهدأ النقاش مرة أخرى ويأتى الواقفون بعيدا • ويقرأ تاريخا موجزا عن كل من القادمين ، وحين يأتى الى بيان مهارات أحدهم • كانت صيحاتهم تعلو •• ويقاطعونه :

ـ هذا هو • ولم محل الخمور ؟
ـ ألم تخبره أن يأتى الى هنا ؟
ـ وما العيب فى معامل الجبن ؟
ـ حين يجيد الواحد عملا يجب أن يبدأ به
ـ أى عمل هذا الذى يجب أن يبدأ به ؟
ـ وما العيب فى معامل الجبن ؟

ويطوى العجوز الأوراق · ويخرج من أحد جيوب الحقيبة رزمة خطابات · ويراهم بعد أن أخذوا خطاباتهم عن المنضدة · ويعد لهم الورق الأبيض والأقلام وظروف الخطابات على طرف المنضدة · ويضع امامه ورقتين وقلما · ويسترخى · هكذا يبدو الأمر دائمـا · مثل أطفـال انطلقوا فجأة للعب غير بعيد عنه · وعيناه طول الوقت تتحسسان وجوههم فى هدوء · يسيرون بين المناضد ويتحدثون · ويقفون عند النوافذ يلوحون بالخطابات · ويصيحون فى غضب ويشتمون · وينفجرون فى الضحك · ويلتفتون نحوه · وفيما مضى كان الأمر يبدو وكأنه يعيش حلما · مملكة عريضة · مترامية الأطراف · يتجول خلالها دون ضوضاء · وعندما يمر بهم يبتسمون له فى ود · واحيانا يقبلون عليه ويسألون فى حياء عن شىء ويمضون · والأشجار كثيفة الأغصان على شاطىء النهر · يقف تحت ظلالها يتأملهم على صهوات جيادهم · ويلوحون له من بين الحقول ، ويقول لهم وهو يودعهم :

ـ تذكروا مواطنيكم فى المدن الأخرى واكتبوا لهم دائما ·

ـ احكوا لى ما يشغلكم ·· بالتأكيد سنجد حلا ·

ويبتسمون له · ويستدير مبتعدا · ويسمعهم يتهامسون :

ـ « العجوز الطيب ·· يرعانا وكأننا صغاره » ·

وحين يغمض عينيه الآن ·· مستعيدا تلك الأحلام الصغيرة ، تبدو له غريبة ·· ومضحكة أيضا · فهو لم يقف فى حياته تحت أشجار على شاطىء النهر ·· ولم يرهم أبدا وهم يعملون · يلتقى بهم دائما فى المقاهى ويمضى ، وعندما يكون فى مقعده بجوار نافذة القطار ، كان يرى النهر · يراه متدفقا بالميـاه · ويراه أيضا عندما يجف ، وقد بدت أحجار كبيرة سوداء أسفل الشاطىء ،

والأولاد يجرون فى قاعه ورذاذ الماء يتطاير متألقا حولهم ٠ وحين يقترب القطار من ضواحى احدى المدن كان يجد نفسه وقد مال على النافذة ٠ ويراها ٠ تلك البيوت وقد بدت عن بعد تحت قمم الأشجار الكثيفة فوق الأرض المرتفعة ٠ وطريق ينحدر خفيفا ملتويا ٠ قليلا ما ذهب الى بيت احدهم ٠ واحيانا كان يفكر لو انه زارهم فى بيوتهم ٠٠ ورآهم هناك وهم يتحركون داخلها ٠ ويجلسون ٠٠ ويضحكون ٠ غير انه كان يفضل دائما أن يترك شيئا ليراه عن بعد ٠

ـ لو أن كل شيء أصبح واضحا ؟

ويلصق جبهته بزجاج نافذة القطار ٠ ويبتسم :

ـ وماذا يبقى لأتخيله هنا ؟

كانوا بعد أن ينتهوا من كتابة خطاباتهم يلتفون مرة أخرى حول منضدته ٠ ويأخذ الخطابات منهم ويضيفها للرزمة ٠ ويربطها بخيط رقيق ٠ ثم يعيدها الى الجيب الخاص بها فى الحقيبة ٠

ـ هل تكتب الآن ؟

ويومىء لهم صامتا ٠ ويبداون فى سرد أخبارهم ٠ يتحدث واحد منهم فى بطء ووقار ، ثم سرعان ما يأخذون فى الثرثرة ٠ ويكون هو طول الوقت منصتا اليهم ويدون فى الورق ما يقولون ومن حين لآخر يتساءل احدهم فجأة :

ـ آه ٠٠ وكتبت هذا أيضا ؟

قليلا ما يحدثونه الآن على انفراد ٠ وكان يحس برغبتهم فى أن يتناقل الآخرون أخبارهم الصغيرة تزداد بمرور الوقت ٠

دائما يريدون أن يقولوا ·· وأن يعرف الآخرون ما يقولونه وما يحدث لهم · وكان أحيانا يحس بنظراتهم القلقة ترقب يده وهو يكتب ·· ويتساءلون ان كانوا حقيقة فى المدن الأخرى يهتمون بأخبارهم ·

وفيما بعد ·· وعندما يكون جالسا في ركنه بالقطار ، كان يستطيع أن ينتقى في هدوء ما يراه مناسبا ليقرأه في جولاته الأخرى · كانت عيناه تجريان فى سرعة وبرود بين السطور · وكان من قبل يتوقف كثيرا مترددا أمام بعض الأخبار · وقد يظل يوما كاملا لا يستطيع أن يقرر ما اذا كان يجب أن يحذفها ·

وبعد أن ينتهوا من سرد أخبارهم ـ كان يحس بذلك عندما يراهم وقد استرخوا فى مقاعدهم وطال الصمت بينهم ـ كان يطوى الأوراق أمامه ويضعها فى أحد جيوب الحقيبة · ثم يسحب ظرفا كبيرا به أوراق وقصاصات جرائد ومجلات مصنفة فى ربطات صغيرة بأرقام مسلسلة · ويسويها أمامه · ثم يسعل خفيفا · ويأخذ فى القراءة ـ انها أخبار الوطن هذه المرة ـ ويأتى صوته هادئا رقيقا · ونبرة متهدجة تعلو أحيانا ·· وترتعش ·· ثم تختفى · وفى لحظة أخرى يأتى الصوت صارما دون غضب ، وحين تكون هناك أخبار طيبة كان جسده المنحنى ينتفض فجأة ، وتبدو عيناه مبتهلتين · وتنثنى اصبعه الوسطى · وينقر بها سطح المنضدة · وأحيانا يكون مستغرقا فى القراءة · ثم تهتز رأسه خفيفا وكأنما ينصت الى ايقاع غامض بعيد · كان يحفظها تلك الأخبار · وقد قرأها كثيرا فى المدن الأخرى · غير أنه فى كل مرة كان حريصا أن يبدو أمامهم وكأنه يقرأها للمرة الأولى · وكانوا حوله يحدقون صامتين · ويبدون وكأنما يحاولون أن ينصتوا فى هدوء · ثم سرعان ما كان صياحهم ينفجر · وتمتد أذرعتهم تتحسس أكتاف القريبين منهم · ويميلون متلاصقين حول

المنضدة · وأحياناـ عندما كان ينقر باصبعه أو يهز رأسه ـ يعلو هتافهم فجأة · يبدأه واحد أو اثنان · ثم يندمج الجميع فى هتاف صاخب · ويسترخى فى مقعده مسبلا عينيه ·· ويده المعروقة الشاحبة فوق الأوراق · ويحس وهو يفعل ذلك وكأنه يهوى بمقعده · وتنفرج شفتاه · ويتأرجح قليلا منتشيا · ويراهم وكأنما يتمايلون بعيدا وسط غبشة ضباب رقيق · ويأتيه ضجيجهم وغناؤهم خافتا مشوشا · وطول الوقت يراوده ذلك الإحساس الغريب « وكأنهم يقومون بلعبة ما ·· يعرفون متى ينتهون منها ·· وأن لا شيء حقيقى أبدا » · غير أنه الآن ـ وقد أصبح مدربا ـ كان يستطيع أن يوقفها ـ تلك الأحاسيس ـ بعيدا ·· ويرقبها فى حذر مداعبا ·

ويميل حفيده بجواره مرخيا عنقه النحيل داخل الياقة المغلقة محدقا نحوهم بعينيه الواسعتين · ويظل وجهه الشاحب وقورا ·· ساكنا ·

ثم كانوا يقبلون لاهثين بعد أن ينتهوا من الغناء · ويظل العجوز مسترخيا وكأنه فى غيبوبة · وكانوا يداعبونه ·

ـ آه ·· لعله لا يحب غناءنا ·
ـ ربما أطربناه كثيرا ·
ـ وحين هتفنا للسلطان ·· هل رأيتموه ؟
ـ آه ·· كان يدير وجهه بعيدا ·

●

عندما يبدأ فى جمع الأوراق ، كانوا يلتفون حول المنضدة ، وقبل أن يغلق الحقيبة ، كانوا يسألونه · ويبدو هو ـ فى كل مرة ـ وكأنما ينتظر ذلك :
ـ والآن ؟

ـ الآن ·· ماذا ؟

ويغلق أحد جانبى الحقيبة · ويظل الجانب الآخر مفتوحا ·

ـ ماذا عن الأخبار الأخرى ؟

ـ أى أخبار أخرى ؟

ـ أنت تعرف ·· اننا نسمع أيضا ·

ـ شائعات · مجرد شائعات ·

ـ ليكن ·· احك لنا ما سمعته ·

ـ ماذا يفيدنا أن نرددها ؟

أحيانا كان الحوار يستمر بينهم طويلا · وعندما يبدو انه قد بدأ يلين لهم كانوا يجدونه وقد تجهم فجأة · ويتمتم :

ـ لن يفيدنا ذلك ·

ويحدق لحظة فى الوجوه المتطلعة نحوه · ويقول :

ـ حين نأخذ فى الهمس وترديد الشائعات ·· فهذا يعنى أننا ننتهى · وتتحسس أصابعه قفل الحقيبة الصغير الصدىء دون أن يغلقها ·

ـ أتظن أن علينا أن نرحل أيضا ؟

ـ هذا الكلام ··

ـ والانجليز ؟ لم نسمعك اليوم تتكلم عنهم ؟

ـ الانجليز ·· الانجليز · وماذا تريدون أن تعرفوا عنهم ؟

ـ هل تعرف انهم بدأوا يقيمون معسكرا هنا ؟ وهل تعرف أنهم جاءوا للمقهى أيضا ؟ آه · أربعة منهم · ثلاثة وقفوا فى الخارج والبنادق على أكتافهم ·· والرابع دخل المقهى والبندقية على كتفه أيضا ·· واشترى بعض زجاجات البراندى ·· وكانوا يعدون له الزجاجات وهو يمشى فى المقهى ·· وينظر هنا وهنا ·· ويتحسس المرايا ·· والنجف ·· والستائر · آه ·· والمفارش ، ويحدق فى وجوه الجالسين ويبتسم ·

ـ وماذا يعني ؟ جندى غبى · ولو أنى مكانه لما فعلت ذلك · يمشي ويبتسم فى وجوه الزبائن · وماذا ؟ يقيمون معسكرا هنا · ان لهم معسكرات فى أماكن أخرى أيضا · ولابد لهم أن يشتروا ما يأكلونه ويشربونه · غير أن ما أعرفه وتعرفونه أنتم أيضا ، انهم هنا لا يريدون غيرنا · وهذا ما قلته أكثر من مرة · اننا مسلمون · مسلمون · وسلطاننا خليفتهم · ولم يحدث يوما أن كانت هذه البلاد غريبة علينا · ولو خدعنا مرة · فلن تخدع مرة أخرى ·

ويصمت لاهثا · ويظل فمه يرتعش ·· وعلى شفتيه رغوة بيضاء ·

ـ وهل حقيقة أننا نعد جيشا للمجىء هنا ؟

ـ سمعت عن ذلك ·· ولا داعى أن نكثر من الكلام ·

ويتمتم صاحب المقهى · وكان يأتى أحيانا ليجلس بجوار العجوز :

ـ الأيام تذهب ولا تعود ·

ويتأملهم لحظة مبتسما :

ـ وحين يقع الدب ·· تحوم الغربان · والحكاية لا تنتهى ·

ويتمتم العجوز ساخطا :

ـ ويكثر الحكماء ·

ويسود الصمت قليلا · ثم يقولون :

ـ وتلك الحكاية ؟

ـ أى حكاية ؟

ـ انهم حاولوا اغتيال السلطان ؟

ويزمجر العجوز غاضبا :

ـ كلام فارغ ·

ـ والاضطرابات التى نسمع عنها هناك ؟

ـ أى اضطرابات ٠٠ لم أسمع شيئا ٠

وتغلق يده الحقيبة ٠٠

ويقفون لحظة صامتين ، يتبادلون النظرات ٠ ثم يأخذون فى الخروج ٠

ـ لن يقول شيئا أبدا ٠

ـ يعرف كل شىء ولا يقول ٠

ـ يوما ما سيأتينا الحفيد بالحقيبة ٠



ويجلس العجوز الى المنضدة عند الباب الخارجى ٠ وبجواره حفيده ممسكا بالحقيبة ٠ وتكون الستائر قد أزيحت عن النوافذ ٠ وضوء الشمس يغمر ممرات المقهى ٠ ويحدق من خلف زجاج الباب الى مبنى المحطة ٠ ويحس بفـراغ المقهى الواسع وراء ظهره ٠ وقد اختفى الضجيج تماما ٠ ويسترخى مغمضا عينيه :

ـ لو أن القطار لم يتأخر هذه المرة ؟

وفيما مضى ٠ كان المقهى يضج بالحركة والصياح ، وكانوا يتزاحمون حوله وهو واقف بالباب ، ما كانوا ليتركوه حتى يأتى من يقول ان القطار قد دخل المحطة ٠ وفى كل مرة يأتى ٠ كان يرى وجوها لم يرها من قبل ٠٠ ويقولون :

ـ أرأيت ؟ جـاءوا من اسبوعين ٠ وكل يوم ينتظرونك ٠ ويسألون عنك ٠

« كان غبار الوطن لا يزال عليهم » ٠ هكذا كان يحس دائما ، والنظرة المرتبكة الحائرة ٠ ويراهم يتحركون وسط الآخرين أشبه بمخلوقات صغيرة تتعثر ٠ وعندما يجلسون أمامه حول المنضدة ٠ كانوا طول الوقت يتلفتون حولهم بابتسامات خفيفة حذرة ويحدقون فى وجهه بصمت أخرس ٠ ويسمع أصواتهم بين الضجيج مترددة

مرتعشة · فى كل مرة يأتى كان يتلفت باحثا عنهم · ويتغامز الآخرون :

ـ آه الوصايا ·

ـ مازلنا نحفظها · سنذكرها نحن لهم ·

وعندما يغادر الآخرون المقهى · كانوا « هم » يظلون معه ، ويسيرون محيطين به حتي المحطة ، ويقول :

ـ اننــا أيضـــا يوم جئنــا كنا نقول عاما أو عامين نحقق شيئا ونمضى · من كان يظن اننا سنبقى دائما · الناس هنا أليفون · والأمور تجرى سهلة ·

كانوا ينظرون اليه فى لهفة وهو يتكلم · ويقفون تحت النافذة ـ بعد أن يصعد القطار ـ يقفون صامتين · يحدقون بعيدا ·· وحين يبدأ القطار فى التحرك · يتقدم واحد منهم فجأة · ويسأله هامسا :

ـ هل تأتى قريبا ؟

وكان يأتى · ويراهم يقفزون فى صخب بين المناضد · ويميلون أيضا فوق منضدته · ويصيح مع الآخرين :

ـ آه ·· انتظر · لا تقفل حقيبتك الآن ·

ويبتسم · وينصرف بنظره بعيدا عنهم ·

كان الهواء الساخن يندفع فى زوابع متلاحقة خلال فتحــة الباب الموارب · فتطير المفارش المزركشة من فوق المناضد · وينحنى بوجهه بعيدا عن الغبار · ويتبع بعينيه مسار الزوبعة وهى تضرب فى أنحاء المقهى · ويرى منضدته هناك فى الركن البعيد · والمقاعد الخالية لا تزال متناثرة حولها · والمقهى واسع · يمتد طويلا كالدهليز · أحيانا كان ينفعل فى خدة ·

ويجمع أوراقه · ويهب خارجا · وكانوا يحاصرونه ويمنعونه من الخروج :

ـ أين تذهب ؟

ـ أنت الذى يفعل ذلك ؟

ويقف محدقا فى وجوههم بدهشة · وهو لم يقصد أبدا أن تسير الأمور على هذا النحو · وفى كل مرة يترك أحد المقاهى كان يحس كما لو أن هناك شيئا غير كامل · أو غير واضح · غير أنه فى اللحظة التالية ـ وبعد أن يستعيد ما فعله ـ كان يتبين أن كل شىء كان منسقا ودقيقا · وأنه أخرج كل ما فى جيوب الحقيبة · وقرأ كل ما دونه فى الأوراق الصغيرة الأخرى · وعندما يستعيد ما كانوا يفعلونه · كان لا يستطيع أن يستمر طويلا · فسرعان ما كانوا يبدون وقد لفتهم غمامة كانت تعتم شيئا فشيئا · وجوه كثيرة كانت تطفو فجأة · وتحدق نحوه فى الحاح · ويتلفت باحثا عنهم ·· ويقولون له :

ـ لقد رحلوا ·· هل نسيت ؟

ـ آه رحلوا اذن ؟ وربما قال لهم بنفسه من قبل أنهم ذهبوا ·

ـ لو أن القطار لم يتأخر هذه المرة ·

وتستقر عيناه متمهلتين على وجه حفيده · ويمد أصابعه يفك الياقة المحكمة حول رقبة الولد · ويبدو جلد صدره خلال الفتحة أبيض مائلا للصفرة ·

ـ هذا الولد · جاء فى وقت غير الوقت ·

وكان فى مثل سنه يسير فى شوارع العاصمة محدقا بعينين مبهورتين وسط الضجيج وقعقعة السلاح · كان أيضا ولدا

شاحبا . وكان يعدو بجوار طوابير الجند . ويتسلق أسوار المعسكرات مطلا عليهم وهم مستلقون أمام الخيام . وفى الليل . عندما يقف بجوار النافذة المعتمة مستقبلا بكفه تيار الهواء البارد وهو ينفذ فى حدة خلال فتحات الشيش الضيقة ، كان له حلمه أيضا :

ـ مولاى . اتركـ لى أوربا .

يقف على رأس كتائب من الجند تمتد طولا وعرضا . راسخا فوق صهوة جواد أبيض . والريح تعبث بعباءته الحريرية الموشاة بخيوط الذهب . وجموع الناس تتماوج . ثم يسود السكون فجأة . ويكون منحنيا أمام السلطان يهمس فى صوت واضح :

ـ مولاى .. أطلقنى الى أوربا يا مولاى ..

وكان ينفعل فجأة . محتدا فى عنف . ويحمل أوراقه ويقولون :

ـ أين تذهب ؟

ـ أتظنهم هناك يهتمون قليلا ؟

وقف عند الباب محدقا فى دهشة . والنظرات تحيط به . ثم يتنبه فجأة للريح الباردة تلسع وجهه ، ويرتعش ، يحس بالرعشة تجرى فى جسده كالنمل . ويغلقون الباب . والمطر ينهمر فى شدة بالخارج . ويقولون :

ـ ما نريده هو أن يتركونا فى حالنا .

ـ ومن قال انهم لم يفعلوا ؟

ـ انه هو .. الذى يتخيل أمورا عجيبة .

ويجلس محدقا فى صمت . ويحس برأسه ثقيلا . وأنه يريد أن يغفو .. لو يكفون عن تلك السخرية .. ويقولون انهم لا يقصدون ، وكان يقول .. يجب أن تكون لكم دائما تقاليد وعادات تحترمونها . وبدونها لا قيمة لكم . وما أسهل أن تذوبوا وتتلاشوا . وكيف يحترمهم الآخرون ؟ ولو انهم تأملوا الأمر

قليلا .. آه .: ما من شعب عظيم الا وكانت له تقاليده الراسخة يسعون اليها في كل مكان . فليسخروا من أي شيء يريدون . غير أن هناك دائما أشياءكم المقدسة . حتى ولو كان الأمر على سبيل الهزار . أحيانا يجدهم يتحدثون كما يفعل صاحب المقهى ويستدير محدقا بعينيه الضعيفتين نحو المكتب :

- كل ما نفعله هو بعض التشنجات .
- نحن هنا بعيدون : ونحلم كثيرا .
- لو أنهم هناك يتنبهون الى منطق طبيعة الأشياء .

أى منطق ؟ يتحدث وكأنه يقول الكلمة الأخيرة ، لو أنهم كانوا قد أرسلوه الى بلد آخر ؟

« ويكون صاحب المقهى مسترخيا على المقعد ورأسه يميل على صدره » ربما لم يكن فاسدا تماما ، تلك الغمزات ، أنا افهم . وهم أحيانا يستجيبون له . وعندما أكون معه يظل طول الوقت صامتا يحدق فى أركان المقهى . أو نائما كما يفعل الآن . وربما لم يكن نائما ويرقبنى من تحت أهدابه . هذا النوع من الناس لا أمان له ومهما فعلت من أجله . أحيانا أحس أننا لو تحدثنا معا . لن أبدأ أبدا . سيحس هو فى لحظة أنه يريدنى . لقد جاء مؤخرا . ولابد أنهم حدثوه عنى .

وتختفى الشمس عن أرض المقهى . ودوائر صغيرة من الضوء لا تزال تتناثر بين أرجل المناضد . وعندما تختفى هى الأخرى يأتى القطار . وينصت مترقبا الضجيج المألوف .

وكان له مقعده أيضا بالقطار . ويستطيع من مكانه أن يميز العربة من العربات الأخرى . والطريق القصير الى المحطة مكشوف دائما لأشعة الشمس الحارقة . ولحظتها تبدو الأشياء وكأنما تطفوا وسط صفرة شاحبة متربة .

وأحيانا كان يجد مقعده مشغولا • ويقف مضطربا يتلفت حوله فى دهشة • ثم يشحب وجهه فى شدة •• وعيناه الزائغتان تختلسان النظر الى الجالس مكانه بجوار النافذة • ثم انه لا ينظر اليه بعد ذلك • وكان يحس تلك الكراهية تفور فى نفسه •• ويزفر •• ويرتعش فمه قليلا • ويظل واقفا بالقرب من مقعده رغم وجود أماكن أخرى خالية •• وعادة يأتى أحد المسئولين بالقطار •• أو واحد ممن يعرفونه ويهمس فى أذن الجالس مكانه •• فيخلى له المقعد •• ورغم ذلك •• كان يحس بشىء من الانقباض فى نفسه طول الطريق •

وفيما مضى •• كان يجلس فى المقعد الذى يجده • لا يهتم بشىء حوله •• عمر طويل • كم سنة ؟ تتراكم الأشياء • ويقولون انها تمضى • ومن حين لآخر يتنبه فجأة •• ويحدق حوله • ان له الآن أشياءه التى يألفها •• يراها من مقعده فى كل قطار يركبه ، ويحس بالطمأنينة وهو معها • المكان الذى يفوح برائحته • واستدارة ظهره على مسند المقعد •• وعرق يده الداكن على حافة النافذة • ونتوءات ملساء تتدرج فى الحجم • ينقر عليها باصبعه حين يتذكر ما يغضبه • والثقب النافذ الى الخارج عند ركن النافذة • وكان ينخر بالسوس ، وقد نفضه مرة وسده بورقة • ثم اكتشف بعد ذلك أن هناك من نزع الورقة • وكان السوس لا يزال به • وكان يعرف بأنهم يجلسون على مقعده فى غيابه • ولابد أنهم يعبثون بأشيائه • وفى كل مرة ـ وبمجرد أن يجلس ويعلق عصاه ـ كان يتحسس آثاره ويطمئن عليها •

وفى عودته تكون الشمس عادة وراءه •• ويستطيع أن يفتح عينيه فى أية لحظة وينظر الى الأشجار التى تختفى سريعا • وكان يعرفها واحدة •• واحدة •• كانت كالعلامات على الطريق •• وشجرة الجميز الضخمة التى تحف بالنافذة فتوقظه من اغفاءته ،

وفي الصباح الباكر ·· وعندما يكون القطار بطيئا ·· كان يستطيع أن يلمــح قطرات الندى على أوراق عيــدان الذرة فى الأحواض المجاورة للقضبان · وأشجار التوت الصغيرة التى لم تنبت ثمارها بعد ·· وسيقانها النحيلة تميل فى عنف مع مرور القطار · وتبدو فروعها للحظة خاطفة ـ بعد مروره ـ وقد انبسطت ساكنة ، ثم فجأة تستسلم لهبات الهواء · وعندما يمر القطار فى انحنــاءة واسعة مهدئا من سرعته ليدخل البلدة · كان يجد نفسه وقد تنبه من غفوته · ويحدق منتشيا الى المنظر العريض خارج البلدة · حيث تتكاثف الأشجار وسـط الخضرة الممتدة · وتتألق ميــاه القنوات الكثيرة فى ضوء الشمس ، وتبدو حواف البيوت الصغيرة فوق المرتفع خلال الأغصان ·

ويمرق القطــار ســريعا بين خطين كثيفين من الحشائش المحترقة الأطراف · ويكون منحنيا فوق حافة النافذة · محدقا الى الأطراف الهشة وهى تنثنى مندفعة تحت القطار · ويحس ذلك الطنين فى أذنيه ، ويترقب الرعشة التى سرعان ما تأتى الى عينه اليسرى · ويرى الطريق والأشجار وقد راحت تندفع فى تلاحق سريع · ويظل محدقا فى عناد بعينين مرتجفتين · وتبدو الأشياء وقد أخذت شكلا لينا · راح يتمــاوج مرتعشا · ثم ينساب المنظر بعد ذلك هادئا · ناعما · والحقول تمتد واسعة تحت أشعة الشمس · ويكون هو مستندا بوجهه الشاحب الى جانب النافذة ·

ـ ذلك الضوء يبرق ويختفى ·· لابد اننى حدقت طويلا · ويغمض عينيه مستسلما لرجرجة القطار ·

(٣)

في الصباح الباكر . يهبط صاحب المقهى المرتفع .. ويسير بين قضيبي السكة الحديد المبللين بالندى متجها الى البلدة . والشوارع لا تزال خالية . وشبورة خفيفة فوق أسطح البيوت كانت تزداد كثافة كلما امتد بصره بعيدا . وبعض الأهالي ـ هؤلاء الذين يسافرون لمسافات طويلة ـ يقفون على المحطة في انتظار أول قطار . وناظر المحطة بملابسه الداخلية مستندا بكوعيه على قاعدة النافذة بالدور الثاني بالمبنى . وآثار النوم بادية على وجهه . كان أيضا ينتظر القطار .

ويدخل المقهى . ويكون الأولاد قد انتهوا من عملية النظافة . والمياه لا تزال تبلل الأرض أمام السلم . ويسير متمهلا بين المناضد . وقبل أن يستدير الى المكتب . كان يتوقف أمام صورة معلقة بجوار المشجب داخل برواز مذهب . كانت لرجل مجعد الوجه له عينان تنظران في غضب . يقف العجوز في صمت وقور مسبلا عينيه ، وقد ارتخت كتفاه ، وأحيانا كان يزيل الغبار في رفق بمنديله عن زجاج الصورة . ويتمتم بكلمات دون صوت .

ثم يعلق عصاه وقبعته الرمادية على المشجب ـ كان الوحيد بينهم الذى يلبس قبعة ـ ويجلس خلف المكتب ٠

لا أحد يعرف شيئا عن صاحب الصورة ٠ وفى البداية عندما كانوا يسألونه ٠٠ كان يقول : واحد من هناك ٠

وكان القادمون حديثا يتأملون الوجه الغاضب داخل البرواز ويقولون ٠٠ انهم لم يروه من قبل ٠

وقد سألوا أيضا العجوز الذى يأتى بالقطار ، غير أنه ـ وكان ينفر فى شدة من صور الذين لا يعرفهم ـ قال :

ـ ومن يكون غير واحد من المتسكعين ٠

وفى مرة أخرى ٠ قال بعد أن تأمل الصورة قليلا :

ـ وماذا يغضبه ؟ أتريدون أن أعرف كل صعلوك ؟ ٠

كان له أيضا بيت فوق المرتفع ٠ أصغر حجما ٠ بين صخرتين على بعد قليل من البيوت الأخرى ٠ وكانت نوافذه الخشبية المفتوحة دائما تصطك فى صوت يدوى كالفرقعة ٠ فى المكان الهادىء ٠ وحول البيت حديقة مهدمة السور ٠ جفت أشجارها الصغيرة فبدت أشبه بعيدان الحطب ٠

إنهم أيضا لا يعرفون عنه شيئا ٠ لقد جاء ذات يوم ٠ ولم يتحدث كثيرا ٠ وكان وحده ٠ يحمل حقيبة صغيرة بها بعض الملابس ٠ وصورتين لصاحب الوجه الغاضب ، وقد علق الأخرى فى البيت ٠

ويقال أنهم جمعوا نقودا من بينهم ٠ وأعدوا له المقهى والبيت ٠ وكان العجوز الذى يأتى بالقطار وراء كل ذلك ٠ ، كان يقول :

ـ فلنساعده قليلا ٠٠ فهو لم يرتب نفسه للمجيء ٠

وعندما ألحوا عليه في السؤال ـ وكان لا يستطيع أن يحتفظ بالأسرار طويلا ـ أخبرهم أن ما يعرفه ـ وقد قال ذلك بطريقة توحي بأنه لم يكشف لهم عن كل شيء ـ انه اتهم مع آخرين وربما كان صاحب الصورة واحدا منهم في مؤامرة لقتل أحد الوزراء هناك ٠٠ ولا يعرف لما فعلوا ذلك ٠٠ وقد أعدم الآخرون جميعا ٠٠ وكان هو أيضا على وشك أن يعدم ٠٠ غير أن عائلته على ما يبدو ذات نفوذ كبير ٠٠ وقيل بعد ذلك أن الآخرين قد استغلوه في هذه المؤامرة دون أن يعرف طبيعتها ٠٠ هكذا تم الأمر ٠٠ واكتفوا بابعاده الى هنا ٠

وكان ما سمعوه كافيا لأن يجعلهم يترددون كثيرا في دفع النقود ٠٠ غير أن العجوز كان قد جمع ما يكفي ـ قبل أن يحدثهم ـ وانتهى الأمر ٠ وكان يقول عندما يسألونه ان كانوا سيؤاخذون على ما فعلوه ـ خاصة هؤلاء الذين يقيمون بجواره ، والذين كانوا يستضيفونه لحين الانتهاء من اعداد بيت له :

ـ وما هذا الذي فعلتموه ؟ انهم أرسلوه الى هنا ٠ ولم يعدموه ٠ وهذا وحده يكفي ٠ وأقول أيضا ٠ أنهم يعرفون أنه جاء خاليا ٠ ويعرفون أننا هنا ٠

وقال لهم في مرة أخرى :

ـ ان كنتم قد فعلتم شيئا ٠ فليس ذلك من أجله ٠ وعلى العموم ٠ لننسى الأمر ٠

وقد ظلوا لوقت طويل يتجنبون الذهاب للمقهى ٠ ما كانوا يذهبون الا حين يأتي العجوز بالقطار ٠ وكان صاحب المقهى قليلا ما يحضر اجتماعاتهم ٠ وكان يظل خلف مكتبه ٠ أو يقف لحظة بجوار العجوز ٠ ويقول كلمتين٠ ويمضي ٠

●

في الظهيرة . وعندما يكون المقهى خاليا . كان يسحب مقعده الهزاز الى الطرقة الخارجية بجوار الباب ، حيث يمتد الظل قليلا . ويرتكز بقدميه العاريتين الى السياج . وأحيانا يخرج ناظر المحطـة ، ويقف أمـام المبنى يجفف عرقه ، ويراه ويسير بامتداد المبنى ويعود . ويدخل المكتب ويخرج . ويصيح بالواقفين ليبتعدوا . ثم يسحب مقعدا من داخل مكتبه . ويسير به الى المقهى . ويضعه فى الطرقة الخارجية بجوار العجوز . ويقف لحظة ساكنا . ثم يجلس . كان عجوزا ضئيل الحجم . أنهكته المكيفات . وكان يبدأ حديثه دائما بزفرات متقطعة . ثم يبدو وكأنما يهمس لنفسه بشيء ما . ويرتفع صوته قليلا . وينفعل ويلوح بيده مؤرجحا مقعده :

ـ ومهما قلنا أو فعلنا . الغنم أولاد الغنم . لا يحلو لهم القعود أو النوم الا فى المحطة . ولا يقطعون التذاكر الا والقطار يتحرك . طول الوقت ممددين فى انتظـاره . ثم حين يرونه قادما . يندفعون لقطع التذاكر . وحتى لو فتحت لهم شباكا فى كل جدار . سيتركونها ويتزاحمون على باب المكتب ، لابد أن يروك كاملا من رأسك لقدميك وهم يدفعون نقودهم . وتقول لهم .. الوقت ضيق . اقطعوا التذاكر فى القطار . آه .. ومن يفهم ؟ ويهز رأسه متعجبا :

ـ آه .. عشر سنين فى هذا البلد .. عشر سنين .

ويمد يده من فتحة القميص . يتحسس صدره الضامر .. ثم يسوى بأصابعه ياقة القميص الملتوية المبتلة بالعرق اللزج :

ـ غنـم ، تعيش وتصحو وسـط غنـم ، وهل هنـاك من يفهمك . حاول مرة . مائة مرة . ان لى أيضا رأيى فى كثير من الأمور ، ولكن لمن تقول ؟

ويتأرجح خفيفا فى مقعده · وينظر الى نوافذ بيتـه فى مواجهته بالدور الثانى بمبنى المحطة · ويكون الشيش مواربا · وأحيانا يبدو ظل وراءه :

ـ طيب · تقـول لى · يأتـون ويذهبـون · ويركبـون القطارات · وأنا لا أركبها · عشر سنين لم أركب قطارا · أقول لنفسى · وأين تذهب ؟ كل بلد مثل الأخرى ـ اذكر لى بلدة واحدة تختلف عن هذه الخرابة ·

وتحمر عيناه غضبا · وينبعث من صدره صوت أشبه بأوراق الشجر الجافة عندما تدوسها قدم ثقيلة · ثم يبصق من فوق السياج · ويرمقه صاحب المقهى صامتا ـ لم يكن قد تعلم العربية ، وبعد أن تعلمها كان نادرا ما يخرج بمقعده الى الطرقة ـ وبدا كأنما يحاول أن يخمن ما يقوله مما يبدو على وجهه من انفعالات · ثم كف عن المحاولة · وراح ينظر أمامه · وقد ارتفع صرير مقعده الهزاز ·

ويجفف الناظر عرقه · ويتمتم :

ـ هذا الحر ··

ويقف مستندا الى الدرابزين ، وقد انفرجت ساقاه القصيرتان متأملا ظله المكور أمامه · ويزفر فى عمق · ثم يسحب مقعده ويهبط السلم ·



وفى الليل · بعد أن يخلو المقهى يكون هو جالسـا خلف المكتب مستغرقا فى دفتر كبير ذى جلدة سوداء سميكة · ويقوم الصبية باغلاق النوافذ واطفاء اللمبات · وينصرفون · وتظل اللمبة المعلقة فوق مكتبه مضاءة · ويبدو فانوس المحطة كبقعة حمراء فوق زجاج الباب المحبب ·

ويسير قليلا فى ممرات المقهى ويداه خلف ظهره ، ويجلس فى الركن البعيد محدقا والمقهى يمتد طويلا عميقا ٠ وانعكاسات الضوء الخافت تتراقص خفيفا على أرفف البار ٠٠ ثم يأتى بقبعته وعصاه من فوق المشجب ٠ ويقف لحظة ساكنا أمام الصورة ٠ ويومىء برأسه مبتسما ويخرج ٠

وفوق المرتفع ٠ يكون الضوء لا يزال متألقا ببعض النوافذ ، والأصوات تترامى فى الليل الهادىء ٠ وغناء أنثوى رقيق ٠ ويقف بنافذته منصتا ٠ وكان يخرج أحيانا ٠ ويسير حذرا بين الصخور المتناثرة ٠ مقتربا من النوافذ المضيئة ، والضوء ينساب ناعما على فروع الأشجار ٠ ويقف متكئا على سور الحديقة الخارجى ٠ انهم أيضا كانوا يحسون بخطواته المتسللة ٠ ونباح الكلاب التى تزمجر فجأة ٠ ثم تهدأ ٠ وعندما كانوا يطلون من النوافذ ٠ كانوا يرونه واقفا بسترته البيضاء فى العتمة الرقيقة ٠ ويظل الغناء متدفقا شجيا ، ثم تختفى الأصوات ، ويختفى الضوء ٠ ويستدير متمهلا الى بيته ٠



وقد جاءوا الى المقهى أخيرا ٠ ذات صباح كان « ميرزا » بك فى طريقه الى التفتيش الزراعى الذى يملكه بالناحية ـ وكان عادة يتخذ طريقه وسط الحقول ، مارقا بجواده الأبيض القوى بين الأشجار ـ وتوقف قبل أن يعبر الجسر ٠ كان قد رأى صاحب المقهى يسير عن بعد بين قضيبى السكة الحديد متجها الى البلدة ٠

ـ هذا هو اذن ٠

وشد لجام الجواد ٠

ـ نقيم المقهى ولا ندخله ٠ ما هذا الذى تقولون ؟

– وتقولون انه أراد أن يقتل وزيرا ٠ أنا لا أصدق انه يقتل برغوثا ٠

– وأى كلام يقول ؟ يشتم السلطان ؟ ومن منا لا يفعل ذلك أحيانا ؟ أنا لا يعجبنى هذا الصنف من الناس ٠ الذى يبدو دائما حزينا وديعا ٠٠ ويسير وعيناه ساهمتان الى الأرض ٠ ولكن هذا شيء آخر ٠ لنكن عادلين ٠ أنا ذاهب الى المقهى ٠

غير أنه لم يذهب ٠٠ ولم يذهب أحد منهم أيضا ٠ ومر ما يقرب من الشهر ٠ وبدا كأنما نسى الأمر ٠

رأى العجوز يختفى خلف البيوت الممتدة خارج البلدة ٠ ثم يظهر مرة أخرى فى فراغ صغير بينها عندما يتقوس القضيبان فى انحناءة واسعة ٠ وأدار جواده وانطلق فى اتجاه البلدة ٠

ربط الجواد بسياج المقهى ٠ ودخل ٠ واستدار العجوز على صوت القدمين الثقيلين ٠ نظر ميرزا بك الى سقف المقهى والمرايا المتألقة بامتداد جوانبه مبديا تعجبه ودهشته ٠ وجلس أمام المكتب ، وقال ضاحكا :

– ها أنا قد أتيت ٠ ألا تعرفنى ؟

كان رجلا ضخما صاخبا ٠ وأشار الى الصورة بجوار المشجب ، وقال :

– أهى صورته ؟

وقال العجوز :

– صورة من ؟

– صورة صاحب الصورة ؟

وانفجر ضاحكا ٠ وهو يضرب قدميه معا ٠



كان الآن يمر كل صباح ليتناول قهوته · وكان الآخرون يذهبون أيضا ، وبدا مستمتعا بتلك العادة الوقور ·

كان يأتى فى موعده دائما · ويترك جواده لأحد الصبية ليربطه بسياج المقهى · ويسير متمهلا · ويجلس الى منضدة لا يغيرها فى مواجهة الباب · وكان يمر أيضا على المقهى فى الليل قبل أن يبدأ جولته وراء اللصوص · وكان معروفا فى الناحية بشغفه الشديد بمطاردتهم · ويقال أن هناك دائما من كان يأتيه بأخبارهم · وكان ينصت اليهم مغمض العينين وقد ارتعشت طاقتا أنفه الكثيفتا الشعر · وكان هو نفسه يقول انه يعرف الكثيرين منهم ويستطيع حين يلتقى بأحدهم أثناء تجواله فى الناحية وينظر فى وجهه أن يخمن الليلة التى سيتسلل فيها الى التفتيش ·

وعندما تثمر أشجار حديقته الواسعة · وفى موسم القطن أيضا · كانوا يرونه وهو يمـرق بجواده كل ليلـة من بوابة التفتيش :

ـ الليلة يزورنى أحدهم ·

ويبتسم مسبلا عينيه :

ـ كنت أقول انه سيخطىء يوما ويفعلها ·

وفى الليل · كان يحلق ذقنه ويأخذ حماما دافئا · ويقف أمام المرآة يسوى شاربه المفتول ، ويضع الطيب تحت ابطيـه وداخل الطربوش · ثم يرمق صورته بنظره أخيرة · ويخرج · ويعلق مسدسا بسرج الحصان ، وسوطا من الجلد البنى · ويقف مستندا بكفه الى رقبة الجواد منصتا لليـل حوله · والضـوء يتسرب من نوافذ البيت الى صفوف شجيرات الورد المتناسقة امام المدخل · والحصى الذى يكسو الممرات يلمع نظيفا · وكان يبدو حذرا وهو يسحب الجواد وراءه وكأنما يخشى أن يخدش السكون الرقيق أو يهشم شجيرات الورد أثناء مروره · ويقفز كلب ضخم

دون صوت من خلف البيت · ويلحق به على الطريق · كان يسبقه ثم يعود · ويظل يقفز فى رشاقة بجواره ممسكا بأسنانه طرف السرج · ويمرق فى سرعة خاطفة من تحت بطن الجواد ومن بين ساقيه الأماميتين · وحين يكون القمر مضيئا كان يستمر فى مداعباته حتى يصلوا الى شريط السكة الحديد فيسمع زمجرة سيده · ويتبع الجواد فى هدوء ·

وفى المقهى ، كان يجلس الى منضدته يرشف قهوته فى بطء والكلب عند قدميه مرخيا أذنيه الكبيرتين · ثم ينهض متجها الى صاحب المقهى ، ويبتسم ويقول :

– ألن تسمعنى شيئا مما تقول ؟

ويحدق بعينيه الجاحظتين فى وجه العجوز :

– انهم يحكون عن كلامك ، ألن تسمعنى ؟ الانهيار ، والقبور المفتوحة والعجوز التى شاخت وتساقطت أسنانها · والقوى الجديدة التى تزحف وتأخذ دورها · كما ترى · الكلام يصلنى أيضا · أتراك تحب الانجليز ؟ وتلبس قبعة مثلهم · ربما كنت مبهورا بهم · حضارتهم وتقدمهم التى يتحدثون عنها · انهم منظمون عنا ولديهم آلات جديدة · ونحن ماذا نكون ؟ همج متوحشون ، عجوز تساقطت أسنانها أليس كذلك ؟ ·

ويضحك فجأة :

– أنظر الى وجهى · أتراني مغفلا · لم تشيع ذلك عن نفسك ؟ أتريد أن تخيفنا ·· آه ·· نعم ·· لكن هذا العجوز كان يقول ·· لا أصدق انك تفعل · حكاية الوزير · أنا أقول انك تريد أن تخيفنا · اخبرنى ولن أقول لأحد ·

ويغمز بعينيه :

– أنا أفهم · لا حديث لهم هنا الا عن ذلك · منذ جئت

الينا وهم يتحدثون عنك ، وكانوا يأتون الى ويسألوننى ان كان حقيقة ما يقوله عجوز القطار • هل رأيت ؟ يسألوننى • هل اتفقت معه ليقول ذلك ؟ البرص العجوز • أنا أيضا أفعلها أحيانا • أهمس له أن يقول شيئا عنى • وبعد أيام أجد من يسألنى • فى كل بلدة أذهب اليها يسألوننى هل حقيقة انك فعلت كذا ؟ آه •• وماذا تظن ؟

ويضحك :

ـ ما أتعجب له أنك أتيت عجوزا • ربما يفعلها غلام طائش أما أنت ؟ وفى سنك ؟ ألن تخبرنى ؟

ثم يقف :

ـ اذهب الآن • الليلة يزورنى أحدهم •

ويظل واقفا ويده الضخمة منقبضة على سطح المكتب •

ـ الذين يتكلمون • لابد أنك أيضا سمعت • والمسألة هى أن أحدهم يتجرأ ويدخل التفتيش • لابد وأن يفكر كثيرا قبل أن يفعل •• تماما •• هذا ما أريد • يحسبها مرة •• ومرة •• ويعدها على أصابعه • وماذا سيأخذ ؟ جوال قطن • ذرة •• رمان •• لا يهم • يقولون أننى أفعل كذا وكذا من أجل شيكارة قطن • هل أفعل ذلك ؟ وربما سمعت أنت أيضا ما يقولون • لا يعجبنى أبدا هؤلاء الذين يتكلمون دون أن يفهموا •• آه •• لابد •• هذا ما أقول •• تثق بالناس •• ويثقون بك • تنام وبابك مفتوح • ويكون كل شىء على ما يرام • ما يبدو على وجهك هو ما فى صدرك ، والمسألة ليست صعبة أبدا • فى غيبة الأخلاق يصبح كل شىء مباحا • هذه هى القاعدة •• الأخلاق •• وقليلون هم الذين يخرجون عن ذلك •• قليلون •

ويستدير خارجا يتبعــه الكلب • ويمتطى جواده وينطلق مخترقا أراضى التفتيش الواسعة • هنا يكون أكثر هدوءا •

يتنفس فى عمق · ويستعيد بشاشته ومرحه · ويحس بجسده مستريحا · وفخذاه الهائلان يترجرجان فى ايقاع منتظم على جانبى الحصان · لا شىء يثير الضيق فى نفسه مثل الأماكن المغلقة والزحام · ورؤيته الناس يتحدثون ·· ويتحدثون ·· وقد بدت على وجوههم تلك الجدية الرهيبة « وكأن كل شىء يتوقف على ما يقولون » · وكثيرا ما يتأملهم فى دهشة حين تأخذهم الحمية للكلام · فتبدو وجوههم وقد التوت وتغيرت ملامحها « آه ·· لو أنهم يرون أنفسهم » ·

وعند مفترق الطرق · كان يهبط من فوق الجواد ، ويسحبه الى أشجار على الجانب كثيفة الأغصان ·· ويقوس الجواد رقبته ويقف ساكنا · ويرقد الكلب فى قاع قناة جافة مرخيا أذنيه ·

والليل هادىء · والسماء معتمة بسحب ثقيلة · وضوء رقيق شاحب ينفذ من بينها فجأة ·· فتبدو أحواض الذرة عن قرب · وكان يستطيع من مكانه أن يرى الكيزان مدلاة من العيدان على حافة الحوض فى مواجهته ·

ـ اذا لم يتنبه له خفر التفتيش فسيأتى ليعبر الجسر · مياه الترعة عالية · ولا منفذ سوى الجسر ·

انه أيضا كان يغير مكانه دائما ·· سرعان ما كانوا يتناقلون الخبر · وأحيانا يكمن فى نفس المكان مرتين متتاليتين · وعندما تنخفض مياه الترعة فهو عادة يكون على الشاطىء الآخر · او تحت الجسر حيث يستطيع أن يلمح اى شىء يهبط الى الترعة · وامامه فى العراء كان يمتد الجسر فوق ترعة واسعة ـ كان جسرا ضيقا مغطى بالقش والطين · يرتكز على اعمدة من الخشب اسودت وتآكلت بفعل المياه · ومن حين لآخر · عندما يبدو أن بطن الجسر قد تقوست اكثر مما يجب · او عندما تأخذ الأعمدة

فى الاهتزاز والصرير بعنف • كانت تقام أعمـدة أخرى مائلة للتخفيف عن الأعمدة الأساسية • ثم يأتى يوم وتختفى الأعمدة الأساسية • ويظل الجسر قائما ـ وعن بعد بدت بيوت العزبة المجاورة وقد اختفت معالمها فى العتمة ، لا ضوء ، ولا صوت •

ويغمض عينيه مسترخيا • والأغصان المتشابكة فوقه ينفذ منها الضوء الشاحب فجأة • ويختفى •

ـ ويقولون • اترك ذلك لرجالك • رجالى ؟ ذلك العجوز لو انه هنا لفر مذعورا • أمثاله لم يخلقوا ليدافعوا عن شىء • يحلمون وعيونهم مغمضة ، آه غبى ، لم خرجت ؟

كان يحدق نحو شواشى الذرة • ورأى شبحا يخرج من أحد الأحواض ويترنح على شط القناة ، ثم يختفى فى الذرة مرة أخرى •

ـ وماذا وجدت فى الخارج ؟ الآن عرفت مكانك • وأتبعك خطوة خطوة • لم فعلت ذلك ؟ لا يضايقنى سوى الغبى الذى يحطم كل شىء فى لحظة • كانت أمامك فرصة • تظل مختفيا حتى نهاية الحوض • ثم فى قفزة أو قفزتين الى الجسر •• آه •• فرصة صغيرة •• نعم •• لكنها فرصة • والآن •• اقترب يا حبة عينى •• اقترب •

ويتربع تحت الشجرة :

ـ الآن •• دعنا نراك مرة أخرى •

يقف الشبح لحظة مختفيا بين العيدان على حافة الحوض • ويتلفت حوله • ثم يخرج • ويسير متعثرا على شط القناة •

ـ انه وحده هذه المرة • لا أصـوات • ولا صفير من الشاطىء الآخر •• والآن يعود الى الداخل •

ويختفى الشبح فى الذرة ·

ـ يتحسسون الطريق ويعودون · يقولون ان هذه طباعهم هنا · آه ·· وأى طباع ! ·

كان يرقب شواشى الذرة · والحركة تسرى خفيفا بأطرافها · وتنفرج دون صوت · وترتعش قليلا · وكأن ريحا تلمسها فى رفق ·

وعندما ينفذ الضوء الشاحب فجأة من بين السحب الثقيلة ، كان يستطيع أن يرى شيئا معتما يتحرك بين العيدان · وقبل أن يصل الى نهاية الحوض الأخير يكون قد ظهر واضحا · ويراه يقف لحظة ساكنا · منحنيا تحت زكيبة على ظهره · وقد لف جلبابه حول وسطه · ويطل على مفترق الطرق والجسر · ثم يخرج من الحوض ويلتقط ميرزا بك حجرا وجسده يترجرج فى ضحك صامت · ويطوحه · ويسقط الحجر قريبا من الرجل · وفى قفزة مذعورة يعود الى الذرة · ويرتمى ملتصقا بالزكيبة · ساكنا كالميت · وتمر لحظة · ثم يتلفت حوله · وينهض · ويرفع الزكيبة الى ظهره · ويقف بين العيدان الأمامية · وعندما يخطو الى شط القناة · يسقط الحجر بجواره · ويتقهقر خطوتين · ويقف ساكنا بين العيدان دون أن يفلت الزكيبة · لقد أمسك طرف جلبابه ـ الذى انزلق عن وسطه ـ بين أسنانه · وبدا كأنما يتحفز ليأخذها جريا الى الجسر · ويندفع · ويزمجر الكلب فجأة · ويدور الرجل حول نفسه · ويبدو للحظة وكأنه لا يرى شيئا · ثم يبدو وكأنما سيعدو الى الجسر · غير أنه يتقهقر فجأة متجها الى حوض الذرة ، ويأتى الصوت ناعما ، كسولا · من بين الأشجار :

ـ تعال ·

ويزمجر الرجل · وينهض الكلب من قاع القناة · ويتمطى قليلا على الطريق · ثم يقبع ساكنا عند رأس الجسر ·

ويبدو الرجل فى الضوء الشاحب ـ الذى يظهر ويختفى ـ منحنيا وسط الطريق المكشوف والزكيبة على ظهره كأنما تصلب فى انحناءاته ، يحدق فى صمت أخرس نحو الأشجار المعتمة ·



ويمتطى ميرزا بك الجواد · وينظر مرة أخرى الى الرجل المعلق منقدميه بفرع الشجرة · وكان يتارجح مقوسا جسده بعيدا عن مخالب الكلب الذى يزمجر تحته وقد شب على ساقيه الخلفيتين ·

قال له :

ـ مد قدميك ·

ومد الرجل قدميه · وكانتا ملطختين بالطين ·

ـ طول الوقت لم ينطق بكلمة · وعيناه على وجهى · لم يسألنى أبدا ماذا أفعل ·



ويعبر الحصان الجسر · ويقف على الشاطىء الآخر · ويمد عنقه الأبيض بين الحشائش الطويلة ·

وتحت الأشجار كانت المعركة تدور فى صمت · لم يكن يبدو سوى اهتزازات الفروع الممتدة فى الضوء الشاحب على الطريق ·

كان مسترخيا على الجواد كالنائم · ينصت لصرير ذرع الشجرة ، وزمجرة الكلب · ويتردد صوت لهاث متشنج :

ـ الآن يصرخ كالمرأة ·

وتنطلق صرختان متتاليتان · ثم يسود الصمت ·

ـ وحين يسمعون صراخه يجرون اليه كالفئران ·

ويدير الجواد متمهلا · ويرمق الزكيبة الملقاة على الطريق ·

ـ ويقولون من أجل شيكارة · آه ·· ها هى · ان لم يأخذها هو بعد ذلك · سيأخذها غيره ·

وتنطلق صرخة أخرى لاهثة ·

ويلكز الجواد بقدميه مارا ببيوت العزبة المعتمة · ويمتد الطريق فسيحا خاليا من الأشجار · ويلحق به الكلب · ويمرق سريعا من تحت بطن الجواد · ويصعد الطريق الى المرتفع · ثم يقف هناك أمام البيت · وينبح نباحا طويلا ·



ـ آه ·· مرة واحدة ·· انقصف فرع الشجرة ·

ومد ذراعه على سطح المكتب · وضحك محدقا الى سقف المقهى ·

ـ كنت قد عبرت الجسر · ووقفت على الشاطىء الآخر · وكنت أراه هناك فى ضوء القمر · متدليا من الشجرة · يذهب ويعود · ويتلوى · عندما كنت أربط الحبل فى جذع الشجرة · سمعته يهمس « أتتركه ؟ » · واستدرت اليه · كان وجهه مقلوبا · وأمسك الحبل بيديه · وكان يحاول أن يعتدل ليرانى · وسحبت الجواد · وصاح « أتترك الكلب ؟ » · كان الكلب قابعا تحته يزمجر · وشتمنى · ظل يشتمنى وأنا أعبر الجسر · ثم سمعت الصوت · وعدت مسرعا · وماذا وجدت ؟ كان الفرع قد انقصف · وحين رآنى أخذ يزحف مبتعدا · وكانت احدى

قدميه لا تزال فى الحبل · قلت : هذه كلمة الله · وهو يعرف ما لا أعـرف ، وأردت أن أغسـل ذراعه وكان الكلب قد نالها ، غير أنه جذب ذراعه · وأردت أن أعطيه ما فيه النصيب · فرماه على الأرض وشتمنى · وعبـر الجسـر وكان لا يزال يلتفت ويشتمنى · لم أبحث الأمر أبدا · حين يقول الله كلمته ·· ومن أكون ؟

وتضرج وجهه · وصمت ·



وما حدث بعد ذلك لم يكن غريبا على الأهـالى فى هـذه الناحية · وقد توقعه الكثيرون وكانوا يتهامسون به ·

وعندما حاولوا أن يتكتموا الأمر ، لم يستمر ذلك طويلا ، ونشرت الجريدة الخبر : « حادث مؤسف » ·

« اعتدى بعض السفلة على حضرة ميرزا بك · فقد عثر عليه خفراء تفتيشه فى الفجر مربوطا الى جذع شجرة · وفمه محشو بشواشى الذرة · ووجهه منتفخ بالكدمات · وجثة الكلب بجواره مبقورة البطن · ولم يفلت من تلك الوحشية سوى الجواد الذى كان يرعى الحشائش بجوار الشجرة بعد أن نزعوا السرج عنه ومزقوه · وقد قبض معاون المركز على بعض المشتبه فيهم ، وما زال التحقيق جاريا ·

هذا وتفيد مصادرنا أن بعض المجرمين الذين أفرج عنهم حديثا فى الناحية بالاضافة الى بعض العناصر المعروفة لدى السلطات هناك باثارتها للاضطرابات والشغب ربما كانت وراء هذا الحادث المؤسف ·· ونحن اذ نحذر الأهالى منهم ·· انما نهيب بهم أيضا أن يساعدوا السلطات فى تنظيف ربوعنا الهادئة الجميلة من هذه العناصر المقلقة » ·

كانت نفس الشجرة · ويقال انه كان مختبئا تحتها عندما سقطت فوقه زكيبة أو جوال ، ثم لم يعد يرى شيئا ·



انطلق عسكر المركز بجيادهم فى القرى والعزب المجاورة ، وكان معاون المركز صديقا لميرزا بك · وأمسكوا بكثير من الأهالى · ثم تركوهم بعد أيام · وطلب ميرزا بك بنفسه من المعاون أن يوقف تلك الحملات · كان يريد أن يمضى الحادث سريعا · وظل معتكفا فوق المرتفع أياما طويلة · لا يهبط الى التفتيش أو البلدة · وعندما خرج بعد ذلك · كان يبدو وكأن شيئا قد تغير فى وجهه ، ربما لأنه كان شديد الشحوب · وربما لأن عينيه كانتا تطوفان كثيرا حين يتحدث أحد اليه ·

وقد كف عن جولاته الليلية فى التفتيش · وكان الآن يقضى الليل فوق المرتفع · أو جالسا بأحد الأركان فى المقهى ·

واستمر المعاون فى حملاته · كان يتعقب أثرا لم يفصح عنــه ·

وقد جاء ذات ليلة الى المقهى ، وكان بملابسه الرسمية ، وكان متربا ، وجلس الى منضدة ميرزا بك · وضحك ، وقال :

ـ أخيرا · ربما كنت تظننى طوال الأيام الماضية لا أفعل شيئا · ولم أرغب أن أريك وجهى قبل أن أمسك به ·

ورمقه ميرزا بك صامتا · وقال المعاون :

ـ لم تسألنى كيف أمسكت به ؟

ـ من أى عزبة ؟

ـ عزبة أولاد فاضل · أتيت مباشرة من هناك لأخبرك ، ولو قلت لك اننى كبست على هذه العزبة ثلاث مرات لن تصدقنى · العزب الأخرى مسحتها واحدة واحدة · وطول الوقت كنت أقول انها هى عزبة أولاد فاضل · لابد قد خرجوا منها · أتركها وأعود اليها · مجرد احساس · تمر على المكان وتقول ان به شيئا يجذبك · أنت تعرفها طبعا · مثل أى عزبة أخرى · فى كل مرة كنت أجمع رجال العزبة فى الساحة · وأظل أنظر فى وجوههم · وأسأل ان كان أحدهم غائبا · ثلاث مرات وأنا أجمعهم وأسأل نفس السؤال · ثم أخيرا تنبه أحد الخفراء وقال انه لا يرى مسعد بينهم · وعثرنا عليه مختبئا فى القش على سطح بيته · هل تذكر حين أخبرتنى انك عضضت أحدهم · وسألتك أين ؟ وقلت وكيف تعرف ؟ وسألتك ان كان اللحم بين أسنانك طريا أم جامدا فرمقتنى غاضبا · كنت تظن اننى أمزح · وقد خمنت من الحركة التى قاموا بها عند الشجرة ، انك لابد أن تكون قد عضضته فى فخذه · وكشفت عنه · ورأيت أثرها · كدمة خضراء منتفخة ، كانت العضة قوية ، انه طبعا ينكر ما حدث · ولكن سترى بعد يومين ·

زفر ميرزا بك ، وتمتم :

ـ وهل أعرفه ؟

ـ ستراه الآن فى المركز ·

ـ وما الفائدة · لم أر وجه أحد منهم · ولا أعرف عددهم ·

ـ من الأفضل أن تراه · ربما ذكرك بشىء نسيته وقت الحادث ·

وخرج الاثنان ·

وفى المركز · انفجر ميرزا بك فى غضبة عنيفة :

ـ ماذا تريد ؟ تجعلنى مسخرة ؟ أتقول ان هذا من فعلها ؟

كان يشير بيد مرتعشة نحو رجل مهلهل مذعور أوقفوه أمامه · كان الرجل ضئيلا · مقوس الكتفين ، وقد أمسكه أحد العسكر من تحت ابطه حتى لا يهوى الى الأرض ·

واضطرب المعاون · وكان يتأرجح على قدميه زائغ النظرات · ثم تقدم فجأة ، وكان يتمتم :

ـ أنت لم ترها · أنظر ·

وانحنى ليكشف عن فخذى الرجل ، وانتفض ميرزا بك :

ـ أتريدهم أن يقولوا ان هذا من فعلها ؟ ألن ينتهى الأمر ؟ ألن ينتهى ؟ ·

واندفع خارجا ·

(٤)

حين يكون أحـد الوزراء أو ضيف كبير قادما من تركيا كان العجوز الذى يأتى من القطار يهمس بالخبر فى المقهى ٠

وفى اليوم المحدد ٠٠ يخرج ميرزا بك الى المحطة ليأخذ أول قطـار ٠ كان الوحيد من ناحيتنـا الذى يذهب ليكـون بين المستقبلين ٠ وكان اسمه يأتى فى اليوم التالى بالجريدة ويقولون انه ما كان ليرضى أبدا أن يرافقه أحد من الناحية ٠ وفى المرات التى لا يستطيع فيها السفر ، كان أيضا لا يسمح لأحد أن يذهب بدلا عنه ٠

كان الأولاد الذين يغسلون المقهى يرونه فى ضوء الفجـر الشاحب واقفا فى وقار أمام مبنى المحطـة وبيده منشـة ناعمة الشعر ، ويحمل له واحد منهم مقعدا من المقهى ٠ وأحيانا يكون ناظر المحطة واقفا بالنافذة ويرسل له المقعد ٠

ويقول أكبر الغلمان لصاحب المقهى وهو يصعد السلم :

ـ انه على المحطة يا سيدى ٠

ـ من ؟

ـ ميرزا بك ٠٠ سيأخذ أول قطار ٠

ـ آه ٠٠

ويقف لحظة ساكنا ٠٠ ثم يدخل المقهى ٠



خلف النافذة الأرضية ذات القضبان الرفيعة ، كان معاون المركز يجلس وقدماه على حافتها ٠ وكانت تطل على شارع جانبى تخف فيه القدم ٠ وكان الأهالى يتجنبون عادة المرور أمام نوافذ المركز المفتوحة ، وعندما يضطر أحدهم لذلك كان يهرول فى خطوات واسعة ملتصقا بالجانب الآخر من الشارع ٠

كانت أشجار الليمون الصغيرة داخل السور الحديدى المنخفض يفوح منها عطر خفيف ٠ والبراعم الصفراء تتناثر متألقة بين الأوراق القاتمة الخضرة ٠ انه عادة فى مثل هذا اليوم ـ الذى يسافر فيه ميرزا بك لاستقبال الضيف ـ يبدو متجهما ٠ يجلس فى الصباح خلف النافذة وقد جعد ما بين حاجبيه ٠٠ ينظر حوله فى ضجر ٠٠ ثم تستقر عيناه أخيرا فوق أوراق العنب العريضة التى تتسلق جانب النافذة ٠

ـ ولا مرة أرى عنقودا واحدا ٠

وينتبه على صوته مرتفعا فى الحجرة ٠ ثم يسمع الباب يفتح ، ويقول دون أن يستدير :

ـ ستقول انهم يقطفونها خضراء ٠

ويقف الشاويش بفتحة الباب صامتا ٠

ــ من هم ؟

ــ الأهالى يا فندم ٠

ــ الأهالى ؟ الذين لا يجرؤ أن يقترب أحدهم من السور ؟

فى كل مرة يكون متجهما كان يحس بالمركز خلف الباب وقد تجهم هو الآخر ٠ كانت الأقدام تمر حذرة أمام الحجرة ، والأبواب تفتح وتغلق فى هدوء ٠ والأصوات ــ حتى زمجرة الشاويشية مع الأهالى ــ كانت تتردد مكتومة فى الطرقات ٠ وفى الخارج كان العساكر يحملون الجرادل ويرشون الماء فى الشارع ، ويبعدون الأهالى عن البوابة ٠ وعندما يحدث أن يرتفع صوت ما كان يراهم يلتفتون فجأة نحو النافذة ٠

ويميل برأسه قليلا محدقا فى الزجاج الملتصق بالحائط ٠ هل كان حقيقة شاحبا كما يبدو فى الزجاج المعتم ؟ لقد أمضى ليلة أمس بعيدا عن المقهى فى زيارات عائلية ٠ وهو قليلا ما يفعل ذلك ٠ وهل يتحمل الجلوس وسط العائلات والثرثرة التى لا تنتهى ٠ وأين يذهب والمقهى الآن محرم عليه ؟ كان يتثاءب طول الوقت ٠ ويحدق ساهما وكأنه فى حلم نحو الركن المواجه له حيث ترتعش ظلال رقيقة ٠ ولكن هل لاحظ أحد منهم ما كان يبدو عليه ؟ كانوا يتحدثون ويضحكون ٠ والضوء خافت ٠ وكان هو صامتا دائما ، ووجهه شاحب ٠ يبدو وكأنما تعذبه فكرة ما ٠٠ ولكن ٠٠ هل كان يبدو كذلك ؟ ــ ويتأمل وجهه وعينيه المسبلتين فى الزجاج المعتم ــ وكانوا أيضا يسألونه :

ــ لا نراك منذ زمن ؟

ــ لم أنت صامت اليوم ؟

وكان الهواء يأتى من نافذة وراءه يداعب طرف المفرش • وسواه بيده أكثر من مرة •• لابد أنهم قد لاحظوا •• وربما خمنوا الأمر أيضا •

وعندما يدخل الشاويش الحجرة مرة أخرى ، يكون هو ما يزال مسترخيا فى مقعده ، وقد مد احدى قدميه من بين حديد النافذة ، ويقول الشاويش :

ـ انه الآن فى المقهى يا فندم •

ـ اسرج الجواد •



ويعبر ممرات المركز المعتمة • وتكون قد أخليت • ووقع أقدامه يرن منتظما • وياقة السترة محكمة حول رقبته البيضاء النحيلة ، والطربوش يميل خفيفا ، وقد بدت فوق أذنه خصلة من شعره الأسود الكثيف •

وأمام بوابة المركز وقف جواد ممشوق • بشعلة بيضاء فى منتصف جبهته • وجلده البنى المحروق يتألق نظيفا فى ضوء الشمس • وعلى احدى جانبى السرج علقت بندقية فى جراب لا يزال جديدا • وعلى الجانب الآخر بدت قبضة سيف لامعة فى جراب أسود نحيل • وخلف الجواد وقف ثلاثة من العساكر على هيئة مثلث • كانوا يعلقون البنادق على أكتافهم وقد نزعوا جراب السونكى • وكان العرق يسيل على خدودهم الغائرة المحروقة اللون •

ويمتطى المعاون الجواد • ويسيرون على مهل وسط الشارع ، واحدى يديه متراخية باللجام والأخرى منقبضة فوق فخذه •



كان وهج الشمس حادا ، والهواء راكد مختنق بالغبار ٠ ومن حين لآخر تندفع موجة ساخنة خلال باب المقهى والنوافذ المفتوحة ٠

ووقف الخواجة صاحب المقهى مستندا بظهره الى البار ٠ كان يسلى نفسه برؤية القادمين فى الشارع قبل أن يمروا بالمقهى وقد انعكست صورهم فى المرايا ٠

ويأتى « خيمر » العجوز الذى يعمل خلف البار ٠٠ ويقف وراءه ٠ كان يجفف كوبا بفوطة ٠٠ ونظر لحظة الى مدخل المقهى ، وقال هامسا :

ـ هل تكفى الزجاجات يا سيدى ؟
ـ انظر بنفسك
ـ كم يوما ؟
ـ يومان ٠٠ ثلاثة ٠
ـ لا أظنها تكفى ٠
ـ عندك المفتاح فى المكتب ٠

ويأخذ خيمر المفتاح ويختفى ووراءه أحد الصبية خلف ستار مسدل عند نهاية البار حيث المخزن ٠٠ ويعود بعد لحظة حاملا بعض الزجاجات يرصها على الرف ٠

ويقف مرة أخرى خلف الخواجة ممسكا بالفوطة والكوب ، ويقول هامسا :

ـ أعددت لك الحقيبة ٠٠ انها هنا بجوارى ٠

ويومىء الخواجة صامتا ، ويهمس خيمر :

ـ اتريد ان افعل شيئا آخر ؟

كانت الشمس فى مواجهة شراعة الباب الملونة • ورذاذ الضوء الملون يتناثر فوق المناضد القريبة من الباب •

ويسير الخواجة متمهلا • ويلبس سترته • ويجلس خلف المكتب •



اخترق الحصان وخلفه العساكر الثلاثة شارع السوق •• وكان مزدحما • وسرعان ما انضغط الأهالى وأفسحوا فيما بينهم ممرا متعرجا •

وسمع أحد الخفراء صهيل الحصان ـ وعادة يتناثرون فى هذا الوقت على مقاهى السوق • وكانوا يستطيعون أن يميزوا صهيل جياد المركز حتى البعيد منها ـ وقفز من المقهى •• واندفع متقدما الحصان فى الممر الضيق • كان يصيح ووجهه محتقن بالغضب ، ملوحـا بخيزرانته ، وقدمـــاه تضربان الأرض فى اعتداد متشنج • ثم لقد بدا وكأنه لم يعد يرى شيئا أمامه ، وراح يدفع الناس بيديه • وكشر المعاون قليلا ، غير أنه ظل صامتا مستقيم الظهر • وكان يبدو أن ما يفعله الخفير وشتائمه القبيحة التى تعلو على ضجيج السوق لا يتفق وما يتخذه وجهه من طابع مأســـاوى هادىء ـ ولكز الجواد ـ وقد أحس بشـعور مفاجىء بالغثيان ـ متخطيا الخفير الذى اندفع مهرولا فى حماقة خلف العساكر ، وكان لا يزال يصيح بالناس ليفســحوا الطريق ، ثم هوى بخيزرانته على الجانبين • وارتفع الصراخ • وكان يرى فيما يشبه الغيبوبة الحصان وهو يمرق فى السوق ساحبا العساكر وراءه ، وقد اتخذوا بمجرد خروجهم هيئة المثلث • واندفع محاولا الوصول اليهم • وكان يلهث مزمجرا ، ثم توقف ـ عندما وجد نفسه خارج الزحام والفراغ يمتد أمامه ـ وكانوا يبتعدون وخلفهم زوبعة من الغبار •



قال الغلام :

ـ انهم قادمون يا سيدى ٠

وسحب الخواجة عصاه وقبعته من فوق المشجب ، وأغلق أدراج المكتب ٠ فى كل مرة كان يقرر أن يصل الى الباب قبل مجيئهم وينتظرهم هناك ٠ غير أنه بعد أن يستدير خارجا من خلف المكتب ، كان يرى المعاون يصعد السلم ، ثم يقف بالباب ، ويدوى صوته داخل المقهى :

ـ ابراهيم حسين ٠

ويرن الاسم غريبا ٠ وكان هؤلاء الذين يرون ما يحدث للمرة الأولى ، يبدون وكأنما أدهشهم أن يكتشفوا أن للخواجة اسما ٠

ويستدير المعاون خارجا ٠ ويمتطى الجواد مبتعدا قليلا وظهره للمقهى ٠

ويتخذ العساكر هيئة المثلث خلف الجواد الذى اكتسى جلده البراق بغبار خفيف ناعم ، وفى وسط المثلث كان الخواجة يسير فى خطوات متثاقلة وعصاه بيده ٠

ويخرج أحد الصبية من المقهى ـ بعد اختفائهم من الشارع ـ حاملا حقيبة على كتفه ٠٠ ويتبعهم ٠



ـ اهو نفس الوزير ؟
ـ هو أو غيره ٠٠ من يعرف ؟
ـ آه ٠٠ كلما جاء أحدهم ٠

ويرش الصبية المـاء حول المقهى · غير انهـا سـرعان ما تجف ، ويتسلل الغبار مرة أخرى الى الداخل ·



ـ أعددت له الحجرة ؟

ـ نعم يا أفندم · أعددتها بنفسى · أخرجت منها المكتب ، ونقلت اليها سريرا من حجرة النوبتجية ·

ـ وماذا يقولون فى الخارج ؟

ـ لا شىء يا أفندم ·

ـ من أين أتيت ؟

ـ من السوق ·

ـ وماذا يقولون هناك ؟

ـ بعضهم يا أفندم ·· كانوا يقولون ·· ها هو ·· لابد أن الوزير قد وصل ·

ـ وغير ذلك ؟

ـ لا شىء يا أفندم ·

ـ وهـو ؟

ـ نائم بالداخل ·

ـ ومن يأتى اليه ؟

ـ خيمر ·· العجوز الذى يعمل فى المقهى · يأتى مرة فى الفجر ، ومرة آخر الليل · يعطيه المفاتيح ويأخذها · لا أحد آخر يا أفندم ·

ويحدق المعاون الى أشجار الليمون فى الخارج · انه قليلا ما يأتى الآن الى المركز · وكان أيضا لا يذهب الى المقهى · وكانوا يرونه ـ خلال الأيام التى يمضيها الخواجه بالمركز ـ فى زيارات لبيوت أصدقائه ومعارفه ، حيث يجلس صامتا والصخب حوله ، أو منطلقا بجواده فى الليل خارج البلدة ، وكان القريبون منه يسألونه :

ـ أما يزال صديقك فى المركز ؟
ـ ومتى يرحل الوزير ؟ لقد أطال هذه المرة ٠
وحين يسأله أحدهم :
ـ لم نعد نراك فى المقهى ؟

كان يبدو وكأنما تنبه فجأة ٠٠ ويتهدج صوته بانفعال رقيق وهو يقول :
ـ واجبى يمنعنى من الذهاب الآن ٠



وفيما بعد ـ عندما جاء معاون آخر للمركز ، وكان رجلا بدينا لا يحب ركوب الخيل ويشكو من تسلخات بفخذيه ٠٠ وكان أيضا لا يحب السهر فى المقاهى ٠ ويقال ان ميرزا بك قد تدخل فى الأمر بنفسه حين رأى الحكاية قد أصبحت على كل لسان فى الناحية ـ كان الأمر يتم بطريقة أخرى ٠

ففى اليوم الذى سافر فيه ميرزا بك لاستقبال الضيف ٠٠ كان أحدهم يأتى فى جلبـــاب نظيف وكوفية حول رقبتـــه ويجلس فى الركن القريب من باب المقهى ٠

وكان خيمر يرسل له من حين لآخر كوبا من الشاى أو فنجان قهوة ، وفى الظهيرة كان يأخذه الى الحجرة الداخلية ويأتيه بالغذاء ، وأثنـــاء السـهرة كان الرجل يقتـرب بمقعـده قليلا من البـــاب الخارجى ويحدق فى دهشة نحو القادمين من وجهاء الناحية ، ويتمتم حين يرى خيمر مقبلا نحوه :
ـ ويأتون هنا كل ليلة ؟
ويقول خيمر مبتسما :
ـ وماذا تظن ؟ انهم كثيرا ما يقضون الليل هنا أيضا ٠
ـ آه ٠٠ مقهى كبير ٠٠ ولماذا يقبضون عليه ؟

ـ يقبضون على من ؟

ـ عليـه ٠

ويشير بوجهه فى حركة خفيفة نحو صاحب المقهى ٠

ويقول خيمر :

ـ لا أعرف ٠٠ هل قبضوا عليه ؟

وينزوى الرجل فى ركنه صامتا ٠

وفى نهاية السهرة ـ حين يخلو المقهى من الزبائن ـ يكون قد غلبه النعاس ومال رأسه على ظهر المقعد ٠

ويجلس الخواجة قليـلا أمـام دفتره بعـد انصراف خيمر والأولاد ٠ وتكون الأنوار قد أطفئت ٠٠ واللمبة لا تزال مضاءة فوق المكتب ، والمقهى هادىء ، وصوت تنفس الرجل فى الركن المعتم يأتى عاليا منتظما ٠

ويلبس الخواجة قبعته ٠ ويومىء للصورة محييا ٠ ويوقظ الرجـل ٠ ويخرجان ٠ ويسيران صامتين بين قضيبى السكة الحديد الى المرتفع ٠ وهناك ٠ كانت الكلاب تنبح فى شدة ٠ ويتبعهما النباح حتى يصلا الى البيت ، ويتمتم الخواجة :

ـ لم تألفنى ٠ كـم سنة لى هنا ، وعندما ترانى تنبح ٠ هذه الحيوانات البشعة ٠

ـ ماذا يعجبهم فيها ٠ كل بيت أمامه كلبان ٠ لم لا يربون قططـا ؟

ويلتفت الرجل وراءه ، ويبتسم قليلا ويتمتم :
ـ آه قطط ٠

وفى البيت · كان الخواجة يشير بيده فى صمت الى كنبة فى الردهة · ثم يبدو بعد ذلك وكأنما نسى الرجل · ويظل الرجل جالسا على طرف الكنبة يقاوم النعاس ·· ويحدق نحو شراعة باب الحجرة المضيئة حيث يرقد الخواجة · وعندما يراها معتمة ، كان يتمدد دون صوت · وسرعان ما كان يغفو ·

وفى الصباح الباكر يكون الضباب لا يزال يغطى الشوارع ، ويرى الاثنان قادمين يسيران فى صمت بين قضيبى السكة الحديد ·

وأمام المقهى ·· كان الخواجة يتوقف لحظة مستندا الى الدرابزين وينظر حوله ، ويتوقف الرجل غير بعيد عنه ، ويستدير هو الآخر · وينظر وراءه فى هدوء · ثم يدخلان المقهى ، ويتجه الرجل الى مكانه فى الركن ·

وبعد يومين أو ثلاثة ·· حين يصل ميرزا بك بالقطار ·· كان الرجل يغادر المقهى ·

(٥)

فى الليل تتألق أضواء المقهى · ويمتد الضوء الى قضبان الاحتياطى ، وعربات الشحن المحملة والخفراء الراقدون فوقها ·

وأحيانا تظل الحركة نشطة أمام المحطة حتى مجىء قطـار العشاء · ثم يهدأ المكان · وتخلو الشوارع المؤدية للمحطة من المـارة ·

أغلق الناظر المحطة بعد مرور القطار · واستدار ليصعد الى بيته · ثم وقف يحدق بعينين مرتعشتين نحو الضوء القوى المتدفق من المقهى ·· وتردد لحظة ·· ثم اتجه الى المقهى ·· ووقف مستندا بظهره للدرابزين أمام الباب · وعادة يكون المقهى فى هذا الوقت خاليا ، وخيمر يتنقل بين المناضد ويعيد ترتيبها للسهرة ، وخلفه أحد الصبية يحمل على ذراعيه مفارش نظيفة مطوية · وعندما وصل الى المناضد القريبة من الباب ، قال الناظر :

ــ ألم يأتوا بعد ؟

ــ لم يأت أحد ·· بعد الصلاة ·
ــ أى صلاة ؟ لقد انتهت ·
ــ اذن سيأتون الآن ·
ــ وهل يلعب الدكتور الليلة ؟
ــ كان يلعب أمس ·
ــ آه ·· سمعتهم وهم يخرجون ·· تأخروا كثيرا ·
ــ رأيتك أيضا · كنت تقف خلف الشيش ·

كان منحنيا · ونظر من فوق كتفه وغمز بعينيه · وعبس الناظر ، وتمتم :
ــ آه ·· كنت واقفا ·
ــ ولم تنادنى · لو انك فتحت الشيش وناديتنى ·
ــ ولماذا أناديك ؟
ــ ايه ·· وهل ضرورى أن يكون هناك سبب · مجرد أن تنادينى وأرد عليك · كنت أقف هنا بعد أن خرجوا ، ونظرت اليك وقلت لابد أنه سينادينى الآن ·· وانتظرت · ولكنك لم تفعل ·

واستدار مبتعدا عن الباب ، وقال الناظر :
ــ والدكتور ؟
ــ لم يربح كثيرا ·
ــ كم ؟
ــ انه لا يقول ·
ــ وكيف عرفت ؟
ــ وهو خارج كان يقول : « آه ·· لقد تأخرنا كثيرا » ·
ــ وماذا يعنى ؟
ــ انه يقول ذلك حين يربح قليلا ·
ــ وربما خسر أيضا ؟
ــ حين يكون الأمر كما تقول فانه لا يقول شيئا أبدا · يمر بى ويخرج من الباب دون أن يقول شيئا ·· وحين يكون الأمر على

ما يرام ، يقف فجـأة وهو يمر بى ويقـول : « خيمر ، أخرناك كثيرا » • أو يقول : « خيمر • أظنك كنت نائما يا ولدى » •• وحين يكون الأمر طيبا تماما يقول : « خيمر • أين كنت • لم أرك من سنوات طويلة » • ويقول أيضا : « خيمر • لعلك راض عن الدنيا هذه الأيام » •

ـ كل مرة يقول ذلك ؟

ـ كل مرة • أتظن انه من النوع الذى يغير عاداته ؟

ـ ولم لا يفعل ؟

ـ أتقول يفعل • الرجل المحترم يحترم عاداته دائما • لا يغيرها أبدا •

ـ وكيف يعرف الآخرون ما يريد ؟

كان يقف خلف البار • متأملا من مكانه المرتفع قليلا المناضد وزوايا المقهى والسقف • ثم استدار ومر بيده فوق الزجاجات على الرف ، وقال :

ـ هل تصعد الآن ؟

ـ آه ••

ـ ما زال الوقت مبكرا •

ـ انه مبكر فعلا •

واستند بكوعيه على سياج المقهى ، وقال :

ـ آه •• مبكر فعلا •• بكم تظن هذه النجفة ؟

وأشار الى لمبة كبيرة فى السقف حولها دلايات كثيرة من الزجاج المتألق •

ـ دائما تسألنى •

ـ بدون الدلايات •• كم تظن ثمنها ؟

ـ وماذا يعجبك فيها ؟

ـ أبـدا ••

واستدار النـاظر محـدقا الى نوافذ بيته • كان الشيش مفتوحا • وضوء المقهى ينعكس على الزجاج المغلق • انه نادرا ما يشعل مصباحا فى البيت • كان يكتفى بانعكاسات الضوء القوية ، وقال :

– اذهب الآن • تصبح على خير •

غير أنه ظل واقفا ، منحنيا على السياج ، وقال :

– ربما حكيت لك ذلك من قبل : كان أبى أيضا ناظرا • آه •• كان ناظر محطة • وفى البلدة هناك ، كانت تمر ثلاثة قطارات فى الليل بعد أن يغلق المحطة • وفى كل موعد كان يصحو من نفسه • ويشعل الفانوس ويقف بالنافذة منتظرا القطار • وما تمر لحظة حتى يرتفع ضجيجه تنفسا • ويحييه الكمسارى والسائق • ويتبادلون الكلام والرسائل • ويظل واقفا بالنافذة حتى يغادر القطار المحطة • ثم يطفىء الفانوس • وسرعان ما يستغرق فى النوم • ثلاثة قطارات كل ليلة • وكنت أيامها أتعجب • كيف يصحو فى الموعد دون أن يوقظه أحد • وعندما انتقل الى بلدة أخرى ، لم تكن هناك قطارات تمر فى الليـل • آه ، قطار واحد سريع كان لا يقف بالمحطة • غير أنه ظل يصحو فى نفس المواعيد • كان يصحو متكئا على ذراعه فى الفراش منصتا • وأسمع صوت سعاله •• ثم •• حين يتنبه كان يعود للنوم • فى كل مرة ينتقل الى بلدة أخرى كان يمر وقت طويل حتى ينسى المواعيد القديمة التى كان يصحو فيهـا • آه •• ولا تستطيع أبدا أن تغير شيئا فى السكن الذى تنتقل اليه • كلها واحدة • حجرتان فوق مبنى المحطة فى لون دخان القطارات • لا تعرف أبدا كم تظل مقيما • وتترقب دائما اليوم الذى سترحل فيه • وتقول •• وهل أدهنها تلك الجدران من أجل الذين يأتون • وكم عائلة جاءت قبلك • لن تستطيع أن تخمن العدد • الآثار واحدة دائما • وكنت أفكر •• لو انهم يضعون سجلا لكل سكن

تدون به أسماء العائلات التى تقيم فيه · ستقول وماذا يعنى ايه ·· مجـرد أن تعرف من جاء قبلك · فى مرة نقلونى الى محطة ·· لن تصدق ·· رأيت آثارنا هناك فى السكن عندما كنت طفلا · الأسماء المحفورة بضلفة الباب · والرسومات تحت قاعدة النافذة · والبقعة السوداء فى الركن حيث اعتاد أبى أن يضع فانوسه · وكانت هناك بقع سوداء أخرى · لابد أن الذين جاءوا بعده كانوا يفضلون أن يضعوا فوانيسهم فى أماكن خاصة بهم ·· ايه ·· أن ترى كل ذلك مرة أخرى ! ·

وهز رأسه متعجبا ، والتفت ، ورأى خيمر قد ترك مكانه خلف البار · وكان مع الصبية يمدون المشايات فى الممرات · واستدار متمهلا وهبط السلم ·



ويقف خيمر بجوار الباب ليكون فى استقبال القادمين · لقد لبس سترته البيضاء · وشعره الشائب يلمع بدهان خفيف · كان ينحنى فى بطء مسبلا عينيه ويتبع الزبون الى المنضدة ، ثم يعود ليقف بجوار الباب · يقولون ان ميرزا بك التقطه من أحد مقاهى العاصمة وجاء به · وفى بداية السهرة كان يبدى قليلا من الغضب مع الزبائن ، ويقول :

ـ ماذا تظنون ؟ هل أحب أن أكون هنا ·· فى هذه البلدة ؟

ـ وما العيب فى البلدة يا خيمر ؟

ـ أنا لا أقول شيئا عن البلدة · انهـا بلدتكم · وأنتـم أحرار · أنا أتحدث عن نفسى فقط · ولا أعرف كيف تسمون هذا المكان بلدا ؟

كان يطل من خلف البار ـ حيث يتأرجح فى مقعده من حين لآخر ـ ويتحسس بنظرته الهـادئة المناضد ووجوه الزبائن ·

وعندما يشعر أن شيئا ما قد خرج عن الايقاع الرتيب كان ينهض ويتجول فى هدوء بين المناضد · أحيانا كان يستشف من نظرات الزبائن حول منضدة الرغبة فى مداعبته · ودون أن يبدو أنه قد لاحظ شيئا ، كان يمر قريبا من المنضدة ·

ـ خيمر ؟

ويستدير متمهلا ، ويقول :

ـ أولا ·· اسمى ليس خيمر ·· لابد أننى حكيت لكم ·

ـ لا · أنت لم تحك شيئا ·

ـ قبل أن آتى الى هنا كان مخيمر ·

ـ وأين ذهبت الميم ؟

ـ آه ·· الميم · هذه حكاية · حين قابلنى ميرزا بك قال لى : « ما اسمك » · كان وقتها مخيمر · ومضى يومان وثلاثة وقال لى : « ما رأيك لو جعلناه خيمر ؟ » · وقلت : « ان ذلك سيكون أفضل يا سيدى » · وقال : « هل تعرف ماذا أقصد ؟ » وقلت : « اننى أعرف يا سيدى · يجب أن يكون لدى الزبون اسم سهل » ·

ـ اذن ، نناديك مخيمر ·

ـ اسمى ليس مخيمر ·

ـ وماذا يكون ؟

ـ أنا لم أقل لكم اذن ·· قبل مخيمر كان شيرى ·

ويبتسم فجأة · وقد انفرجت تجاعيد وجهه الكثيرة :

ـ هناك فى مقهى رينيه · مقهى كبير على النيل · هل رآه أحدكم ؟ ان مسيو رينيه لا يزال يذكرنى · لم أعمل عنده طويلا ، ولكن لو سأله أحدكم سيذكرنى · عندما ذهب ميرزا بك الى هناك سأله عنى · وقال لى ميرزا بك ان الرجل يعرفنى جيدا · حين وقفت أمامه تأملنى طويلا · من قدمى الى رأسى · ونظر الى أصابع يدى · وقلت هذا رجل فرنسى حقيقى · ومن الأفضل

دائما أن يعمل الواحد عند رجل فرنسى ، أما هؤلاء اليونانيون ، قال لى مسيو رينيه « ستعمل مكان شيرى » ·· كان يشرف على المطعم ثم ذهب ·· وكان كثير من الزبائن يسألوننى : « أين ذهب ؟ » وكانوا أيضا ينادوننى : « شيرى تعال ·· شيرى أين البطاطس ؟ » وأقول حالا ·· وقال لى مسيو رينيه : « لم تقل لى ان اسمك شيرى ؟ » ·· وكان يبتسم ، وقلت : « انه شيرى يا سيدى » ·

ويقولون حول المنضدة :

ـ وقبل شيرى ؟

ـ قبل شيرى ·· آه ·· كان خريستو ·· أظنه كان بعده ·· لا أذكر ·· هؤلاء اليونانيون ·· كل من لا يعرفونه يدعونه خريستو ·· كان محلا كبيرا لبيع الخمور ·· وكان هناك اثنان غيرى ·· كان ينادى فقط خريستو ·· ويرد أى واحد منا ·· كان يكسب كثيرا ·· ويحدق طويلا الى جيوبنا ونحن خارجون ·

ـ وغير خريستو ؟

ـ كان هناك جون أيضا ·

ـ وما حكاية جون ؟

ـ آه ·· هذه حكاية طويلة ·

ـ أين تذهب ؟ انتظر ، لم تقل لنا اسمك ·

ويلتفت فى دهشة ، ويقول :

ـ خيمر ·

ويبتعد فى خطوات خفيفة ·

(٦)

اعتاد ميرزا بك فى الشتاء أن يأتى كل ليلة الى المقهى بعد صلاة العشاء · كان يومىء برأسه فى صمت لصاحب المقهى ، ويمضى الى منضدته فى الركن · وكان خيمر يضع فوقها وعاء من الخزف به زهور · ويشرب قهوته وعيناه شاردتان فى أنحاء المقهى ·

وجاء فى ليلة ، وكان المطر يتساقط خفيفا بالخارج · وقف بالباب ينفض قطرات الماء العالقة بعباءته · ثم سار الى صاحب المقهى · كان يبدو فى هذه الليلـة وكأنما قد استعاد شيئا من بشاشته ومرحه ، وقال ضاحكا :

ـ كيف الحال هذه الأيام ؟

ـ كما ترى ·

ـ آه ·· وما زلت تعلق صورته أيضا ؟ يغيب الواحد طويلا ثم يأتى ويجد كل شىء كما هو ·

ابتسم صاحب المقهى وقال :

ـ تغيب ؟ ومن كان معنا هنا كل ليلة ؟

ـ آه ٠٠ كل ليلة ٠ شيء رائع أن تعود وتجد كل شيء كما تركته ٠ لن تكون في حاجة لأن تبدأ من جديد ٠ نفس الوجوه التي ألفتها والأماكن وكل شيء ٠

واستدار ٠ ووقف هناك بجوار منضدته يحدق من وراء الزجاج المبلل بالمطر ٠ اليوم جاؤوه بكلب ضخم ٠ جاء به رجلان من العاصمة ٠ كان الكلب مربوطا في سلسلة وحول فمه غطاء من سيور الجلد ٠ وكان لونه بنيا فاتحا ٠ وأذناه الصغيرتان وفمه في لون بني محروق ٠ ودار ميرزا بك حوله ٠ وزمجر الكلب زمجرة خافتة ٠ كان يقبع على مؤخرته ساكنا ٠ شامخا برأسه ٠ وأذناه منتصبتان ٠ تأمل ساقيه الأماميتين ٠ وفخذيه ٠ ورجفة بطنه السريعة اللاهثة ٠ وربطه في الحلقة بمدخل البيت ٠ وفي العصر وقف بالنافذة ينظر اليه ٠ كان راقدا ولسانه يتدلى داخل الغطاء الجلدي ٠ ومن حين لآخر كان ينهض ويتمطى ، ويتثنى جسده الممتلىء في ليونة ، وقد برزت عضلات رقبته القوية ٠ ثم يسير متمهلا في تحفز ، وكان يتوقف دائما قبل أن تشده السلسلة من الخلف وكأنه يعرف مداها ٠ ما كان يحلم يوما بأن يحصل على كلب مثله ٠ قال لخيمر عندما جاءه بالقهوة :

ـ كيف حالك يا خيمر ؟ مبسوط هنا ؟ آه ٠٠ وزهور أيضا ؟

وتحسس الزهور وقربها من أنفه ٠ كان يتنفس في عمق ٠ وشرب القهوة ، ونظر حوله بعينين متألقتين ، وكان يتأهب للنهوض عندما تهشم الزجاج فجأة في صوت مدو ، وسقط الحجر على منضدته ٠ وقفز الموجودون بالمقهى ٠

وقف ينفض رذاذ الزجاج عن ملابسه ، ويتمتم :

ـ لا ٠٠ لم يحدث شيء ٠

ونظر مرة أخرى الى الفجوة الواسعة التى أحدثها الحجر بالزجاج · كانت قطع من الزجاج لا تزال عالقة بأركان النافذة ، وبدت خيوط المطر الخفيفة فى انعكاسات الضوء بالخارج ، وكانت الساحة خالية ، والقضبان المبللة تلمع فى الضوء ·

وتمتم خيمر : « أول مرة يحدث شىء مثل ذلك » ·

كان منحنيا يمسح الخدوش بيدى ميرزا بك · والتف زبائن المقهى حولهما · ووقف ميرزا بك هادئا · وبدا كأنما ينصت لثرثرتهم ، ثم سحب يديه فجأة من يدى خيمر ، ومضى خارجا ، وامتطى جواده وانطلق الى المرتفع ·

وجاء ولد بعد أيام فى جلباب نظيف الى صاحب المقهى . وقال :

ـ سيدى ميرزا بك يريدك ·
ـ أين ؟
ـ فى البيت يا سيدى ·
ـ وكيف حاله ؟
وقف الولد صامتا ، وقال صاحب المقهى :
ـ الآن ؟
ـ نعم يا سيدى ·
ارتدى صاحب المقهى معطفه ·· وتبع الولد ·



كانت الحجرة واسعة ، والنوافذ مغلقة ، وضوء القمر الشاحب ينفذ خلال فتحات الشيش ·· ووقف صاحب المقهى بمدخل الحجرة ·· كانت العتمة خفيفة ، ثم رآه هناك فى الركن البعيد راقدا فى الفراش · أمسك بيد صاحب المقهى وضغطها فى قوة ، وهمس فى صوت لاهث :

ـ كنت أعرف انك ستأتى ٠
ـ ما الخبر ؟ لم نرك من أيام ؟
ـ آه ٠٠ لم ترنى ٠

واسترخى مغمضا عينيه ٠ ودخل الولد بمصباح علقه على الحائط ، وحمل فى خروجه طستا وابريق مياه كانا بجوار الفراش ٠ كانت الحجرة مختنقة بالأنفاس ورائحة عرق نتن ممتزجة بعطر صابون قوى ودخان يتصاعد من نار صغيرة تخبو فى وعاء تحت النافذة ٠ وكانت بعض الصور معلقة فى اطاراتها على الحائط فى مواجهة العجوز ، وقد تدلى من بينها سوط كان معلقا من مقبضه ٠ زفر ميرزا بك وظل ساكنا ، ورمقه العجوز فى صمت ٠ أدهشه ذلك الشحوب الشديد فى وجهه ، واللون البنى القاتم حول عينيه ٠ وبدا من فتحة الجلباب الأبيض المبلل بالعرق شعر صدره الكثيف الخشن ٠ كان تنفسه ثقيلا لاهثا ، وقال العجوز فجأة :
ـ هذا الكلب أمام البيت ٠
ـ هل رأيته ؟
واختلج وجهه لحظة ، وتمتم العجوز :
ـ كلب غريب ٠٠ ضخم ٠٠ من أين حصلت عليه ؟
ـ من أين تظننى جئت به ؟
ـ اشتريته ؟
ـ مثله لا يباع ولا يهدى ٠٠ سرقه بعضهم وجاءونى به ٠
قال العجوز :
ـ الجميع فى المقهى يسألون عنك ٠
ـ آه ٠٠

واستدار لاهثا نحو العجوز وهمس :
ـ اتصدقنى الآن ؟ كنت أقول انه الآن لابد يصدقنى ٠
وصمت ٠ وضغط يد العجوز خفيفا :

ـ لا أحد يعرفهم هنا مثلى ·· لا أحد · وقلت لك ذلك ·· لم تصدقنى · وقلت سيأتى يوم ويعرف ·

كان يحدق بعينيـه الجاحظتين فى وجه العجـوز · وبدا بياضهما عن قرب محتقنا بشعيرات كثيرة حمراء :
ـ عندما ترخى قبضتك ستجدهم فى لحظة وقد أحسوا بذلك . كل ليلة ينهبون التفتيش ·· كل ليلة · وضربوا خفيرا · لم أخبر أحدا · وما الفائدة · ضربوه حتى الموت · وسألته من هم ؟ لم يخبرنى · كان يموت ويقول انه سقط فى بئر · ويقبل يدى ويقول سيقتلون ابنه لو قال شيئا ··

ـ وماذا تظن الخفراء يفعلون الآن فى التفتيش ؟
وصمت · وسقطت يده التى كان يلوح بها بجواره · نظر العجوز حوله ، وهز رأسه قليلا ، وقال :
ـ أريد أن أقول ·· بالنسبة لما حدث فى المقهى ··
ـ وماذا حدث فى المقهى ؟
ـ أمسكنا الولد الذى قذف الحجر · كان يلعب مع ولد آخـر ·
ـ آه ·· يلعب ·
ـ اعترف الولد لنا · وجئنا بأبيه · كانا يلعبان · هذا ما حدث ·
ـ هذا ما حدث ·

وأسبل عينيه · وشبك يديه فوق بطنه الضخم ··
ـ ما أسهل ذلك · وكنت أقول انه الآن يصدقنى ·
ـ ولم لا أصدقك ؟
ـ أنا فى غنى عن بركتك · كل ما تهذون به أنت وغيرك · كل ما تقرأونه · وما أهميتـه ؟ ما يحدث لا تستوعبه عقولكم الراكدة · أنتم بعيدون عن أى شىء · هكذا الأمر · هكذا · ما أسهل ذلك · يجلس الواحد مسبلا عينيـه ويحلـم ويغضب

ويضحك وأمامه صورة معبوده يتأملها من وقت لآخر مقسما له يمين الولاء وكفى ، وكنت أقول انه لابد قد بدأ يفهم • وماذا جاء بك ؟

ـ ألم ترسل الى ؟

ـ أرسل اليك ؟

كان مستندا على كوعه يرمقه بنظرة معتمة ، ثم استرخى ووجهه للحائط •

تحسس العجوز مؤخرة السرير بحثا عن عصاه ، ووقف ساكنا ، ثم همس :

ـ الا تريد شيئا ؟

ـ ظل مستديرا نحو الحائط • وكان لحم رقبته المتهدل ينبض مع صوت لهاثه المكتوم • وخرج العجوز •



وكان جالسا بالطرقة الخارجية للمقهى صباح اليوم التالى عندما سمع الخبر ، وكان الصراخ يترامى من فوق المرتفع • ونهض ودخل المقهى •• ووقف ساكنا بجوار المكتب •

قال العجوز الذى يأتى فى القطار :

ـ لم يخبرنى أحد انه كان مريضا •

كان صاحب المقهى قد نهض للقائه حين رآه نازلا من القطار ، وأمسك كل منهما بيدى الآخر • ووقفا فى صمت ، ثم سارا الى

المقهى · وجفف العجوز الذى يأتى بالقطار عينيه · وكان أنفه شديد الاحمرار ، وتمتم :

ــ رجل مثله ويموت

ووقفا أمام المقهى لاستقبال العزاء ·

كانوا يفدون جماعة وراء الأخرى ·· جاءوا من المدن والعاصمة ·· وازدحم المقهى والسرادق الضخم فى الساحة · وعلقت شرائط سوداء عريضة على واجهة المقهى · وظلت معلقة هناك حتى بهت لونها ومزقتها الريح · وخيم الصمت طويلا فوق المرتفع ·

الأيام الصعبة

(١)

الصيف يأتى مبكرا · وهنا فى البلدة لا يعرفون سوى الصيف ، فأيام المطر قليلة ، والسحب صغيرة ناصعة البياض تزحف فى تراخ وسط سماء شديدة الزرقة ، ويأتى الربيع والخريف ويذهبان ·· لا يحس بهما أحد ·

تسـطع الشمس من الصباح الباكر وسرعان ما تشـتد الحرارة ، وتتلون الرمال بصفرة شاحبة ·· وتمتد خلف الجبال ناعمة براقة ·· خالية من آثار الأقدام ·

وفى منتصف النهار تبدو صخور الجبال وقد التهبت جوانبها بحمرة خفيفة · وتخلو الحوارى والساحة · وتستلقى الكلاب لاهثة فى مناطق الظل المنحيلة بجوار الجدران والمصاطب · ويخرج الرجال بعد أن جفت رطوبة الحوش باحثين عن الظل والنسمات الرطبة ·

وعلى جانبى الترعة ، تمتـد أحواض القطن ، وحول كل منها سياج من عيدان التيل · لقد انشقت اللوزات الجافة سريعا بفعل الجو الحار · وتألقت بشائر القطن ناصعة البياض ·

وفى المصلى ـ حيث اختاروا له مكانا على الشاطىء مندسا بين أشجار كثيفة الأغصان ـ كأن نفر من الأهالى يستلقون طول فترة الظهيرة · كانوا يستطيعون أن يروا من خلال الأشجار الطريق المتعرج بين الجبال · لا أحد يمر فى هذا الوقت من النهار ، لا أحد يدخل البلدة أو يخرج منها · وتبدو البيوت التى تناثرت بامتداد الترعة وقد أغلقت أبوابها وكأنها مهجورة ·

وفى العصر يكون الجو ما يزال ساخنا · والظلال قد امتدت قليلا ·· ويخرج الأهالى الى المصاطب · ويرشون الماء ·

عادة يبدأ تجار القطن يأتون (انهم صغار التجار ، ويعملون فى القرى المجاورة حلاقين وجزارين وتجار حبوب · وحين يأتى موسم القطن · يحملون ما ادخروه طول العام · ويبيعون مصاغ نسائهم · ويجوبون القرى والعزب) ·

كانوا يأتون اثنين اثنين · فوق البغال · منحدرين على الطريق المتعرج فى الصهد اللافح · وقد عقدوا مناديلهم فوق رؤوسهم · وينتشرون فى الحقول وأمـام البيوت والمقاهى · وكانوا يمرون فى طريقهم بالمصلى ·· وهناك يقف الاثنان · انهما عادة يجمعان نقودهما معا · وأحدهما ـ الذى يفك الخط ويلبس جلبابا نظيفا وحذاء ويعلق الميزان الى جانب بغلته ـ يمسك الدفتر ويقوم بالمساومة ودفع النقود · ويكتفى الآخر ـ وقد طوى الفوارغ على ظهر بغلته ـ بدور التابع النشط ·· فيقود البغلتين · ويهبط بهما الى المياه · ويظل شريكه واقفا على الشاطىء · لقد رمق الأهالى فى المصلى · وكانوا هم ايضا ينظرون اليه مترقبين · وسألهم عن الأحوال ، وذكر أسماء بعض الناس فى البلدة · قال انه يعرفهم · وحكى بعض الحوادث عن لقائه بهم · وكم مرة اشترى منهم ·

ويتمتم من حين لآخر : ناس طيبون ·· طيبون ·
ثم يتساءل واحد من الأهالى عن آخر الأسعار ·
ويقول التاجر : « عشرة » ·
ويقولون : عشرة ·· ومن أسبوع وصل الى اثنى عشر ·
ـ واليوم فقط ·· فى الصباح باعوا باثنى عشر ونصف ·
ـ وتأتى لتقول لنا عشرة ·

ويجلس التاجر على سياج المصلى · المهم أن يبدأ الكلام · وهؤلاء الذين لا يملكون يجعجعون كثيرا · يساومون وكأن لديهم حقا ما يبيعونه · وربما كان كل ما لديهم لا يساوى بريزة · ولو توقف الأمر عليهم لأراح نفسه من ثرثرتهم التى لا تنتهى · غير أن هناك بينهم من يتابعون النقاش فى صمت ·

يجلسون فى أركان المصلى · وقد مد كل منهم ذراعه فوق ركبته · وعادة يكون لدى الواحد منهم قنطارا أو نصف قنطار · ويبدون دائما وكأنما يخشون أن يعلنوا أن لديهم ما يبيعونه · كانوا يقولون : « هؤلاء التجار الذين يتسكعون ببغالهم على السكك ·· لا يخلون أبدا من الألاعيب » ·

يتأرجح التاجر على السياج · ويظل فى حواره مع الآخرين · وكانوا يقولون : ان تاجرا مثله لابد وأنه يكسب فى القنطار الواحد خمسة جنيهات ·

ـ ولو حسبنا ثلاثين قنطارا فى الموسم ·
ـ ثلاثون ؟ قل خمسين ·· سبعين ·
ـ طيب ·· خمسون ·

ويزيح أحدهم القش عن أرض المصلى · ويجرى العملية الحسابية ·

ـ مائتان وخمسون ·

ـ مائتان وخمسون جنيها فى الموسم ·

ـ قليلــة ·

ـ آه ·· قليلة عليه ·· ولا تعبه فى ركوب البغـل على السكك ·

ويضحك التاجر · ويتحسس جانب صـدره الأيسر المنتفخ ـ حيث يحتفظ بكيس النقود ـ ويبدو جيب الصديرى من فتحة الجلباب المهدلة · وسلسلة فضية لامعة تترجرج خفيفا ، ويقول :

ـ ومن يلومكم ؟ تجلسون فى الظل وتتكلمون · وماذا عندكم تبيعونه ؟ شيكارة قطن ؟ مقطف ؟ لو انخفض السعر أو ارتفع كم يكسب الواحد منكم أو يخسر ؟ بريزة ·· ريال ·· يصرفها على المقهى فى سهرة · ولو كان عنده خمسون قنطارا وانخفض السعر فى آخر الموسم ؟ ايه ·· سيرتمى كالنعجة · وهل أحدد أنا السعر ؟ سأقول لكم · من عشرة أيام · وصل السعر الى اثنى عشرة · بجواركم هنا فى العزب · الحاج منسى ·· لو يعرفه أحدكم ·· قلت له : اثنى عشر يا حاج ، وقال : ثلاثة عشر ·· وهل أحدد أنا السعر ؟ ايه ·· من يريد أن ينتظر · ينتظر · وبعدها بيومين نزل السعر الى احدى عشر · وبعدها بيومين نزل الى عشرة · أى والله · أربعة أيام بالعدد · وأمس قابلنى ، وجذبنى من ذراعى وقال : « تعال خذها · لن أبيعها لغيرك · عشرة · لن أفتح فمى » · الغيب لا يعلمه غيره · وأقول لكم ·· ان لى عشر سنوات فوق هذه السكك · وكل ما نعلمته ·· ان السعر عندما يبدأ فى الهبوط · لا يرتفع أبدا ·

وينهض · ويكون رفيقــه قد صعد بالبغلتين ووقف صامتا ممسكا بالمقودين · ثم يمضيان ·

غير أنهمــا كانا يتوقفان بعد خطوات قليلة · يتحدثان فى صوت خافت ويبدوان وكأنما نسيا المصلى ومن فيه · ثم يخرج

التاجر كيس النقود من جيبه ـ كيس من القماش السميك طواه عدة طيات ـ ويمد يده داخله ٠ ويسود الصمت فى المصلى وتتعلق العيون بالكيس وحركة الأصابع داخله ٠ ثم يلوح التاجر الآخر بيده ويمضى ٠ ويطوى التاجر الكيس ويضعه فى جيبه ٠ ثم يمتطيـان البغلتين ويسيران فى اتجـاه البلدة دون أن ينظـرا وراءهما ٠

وكانا أحيانا يسمعان النداء قبـل أن يختفيـا مع منحنى الطريق ٠٠ ويقفان لحظة مترددين ٠ ثم يعودان الى المصلى ٠ وتبدأ المساومة من جديد ٠ وفى هذه المرة يتكلم الرجال الجالسون فى الأركان ، ويصمت الآخرون ٠ وينتهى الأمر بدفع العربون أو الثمن ٠ وقراءة الفاتحة ٠

وفى الليل ٠ تدرج عربات الكارو محملة بأكياس القطن فوق الطريق الى خارج البلدة ٠

(٢)

انحنى عبد الستار وبيده قطعة خشب رفيعة وكوز اللون ، وراح يكتب اسمه والبلدة فوق الأكياس . كان يكتب فى بطء وركبتاه العاريتان تضغطان جانبى الكيس . وكان ضوء النهار لا يزال ينفذ من فتحات خشب الشباك المغلق ، والعتمة خفيفة بالمندرة ، قالت امرأته وكانت تتبعه والسمبلة فوق راسها :

ـ ولم البنفسجى ؟ الأزرق جميل .

ـ الأزرق نحس .

كان يمسح بقطعة قماش ما ينزلق من اللون بين الحروف ، وكانت الحروف كبيرة تنتهى بتقوسات حادة .

ـ والنبى خطك حلو يا عبد الستار .

ـ وأين عرفت الخط ان شاء الله ؟

ـ وضرورى أعرف .

كانت الأكياس مرصوصة بامتداد الجدران . ووقف أمام كيس لا يزال مفتوحا ـ وكان يقلب اللون فى الكوز ـ وقالت امرأته :

ـ حاتستعجل رزقك ؟

ـ طيب اسكتى .

جلس على أريكة فى الظل أمام البيت . كان الوقت عصرا ، والجو لا يزال ساخنا ، وكانت امرأته على العتبة الداخلية تنظر الى الشارع خلال فتحة الباب المللوارب .

وقال عبد الستار :

ـ أرسلت الغداء لأبى ؟

ـ من ساعة . جاء الولد وأخذه .

كان يعمل حلاقا ، وله دكـانته فى السوق . وفى موسم القطن يتركها لصبى يتدرب عنده . ويكتفى بالمرور فى الصباح الباكر والليل ليحلق لزبائنه الكبار . وكان أبوه الشيخ مدبولى قد كف عن الوقوف بالدكان منذ أصابت الرعشة يديه . كان يقبع طول النهار على كنبة صغيرة أمام الدكان ، وعند مجىء أحد الزبائن كان ينتبه من اغفاءته ، ويـيميل برأسه محلقا ليرى ان كان الولد موجودا . كان الآن يتحرك فى هدوء .. يذهب ويعود دون أن يحس به أحد .

ـ هل أغضبته ؟

ـ أبدا .. هو الذى يغضب نفسه .

ـ وماذا يقول الناس حين يرونه يأكل فى الدكان ؟

ـ يقولون ما يقولون .

ـ كله من هذه الشركة .. اننا عارفه .

وسحبت وجهها الى الداخل .

ونهض عبد الستار ومضى الى البيت القديم فى مواجهته ٠ وفتح باب المندرة وسحب البغل ٠ وربطه الى الأريكة ، وقال :
ـ أعددت الأكياس ؟

وجاءته بالاكياس والميزان ٠ وربطها الى ظهر البغل ٠
وكان جالسا على الاريكة يغفو ٠ بعد قليل يأتى شريكه بركات ويذهبـــان ٠
وقالت امرأته ٠٠ لم لا يصعد وينام قليلا ٠٠ ؟
ثم مدت وجهها من فتحة الباب ٠ ورمقته لحظة فى صمت ٠ وقالت :
ـ والله يا عبد الستار ٠ ما كان لها لزوم الشركة ؟
وكانت تمسك بضلفة الباب لتغلقه لو انفجر غضبه ٠ غير انه أومأ برأسه فى هزة خفيفة ٠ وتمتم :
ـ اللى حصل والسلام ٠

وما حدث يبدو له الآن غريبا ٠ هل كان الأمر يستحق ان يغضب أباه ؟ وهو طول عمره لم يشارك أحدا ٠ ومن قبل كان أبوه أيضا ٠ ويوما كان واقفا وراءه ٠ وكانوا ايامها فى البيت القديم ٠ وقال أبوه لأصحابه فى المندرة :
ـ أى خير فيها ٠ لن تأخذى سوى نصف الرغيف ٠
ـ ولم لا يأخذ كل منكما رغيفا ٠ ولو حدث لا قدر الله شىء ٠ ستجد من يخفف عنك ٠
ـ والله ٠ كل شيخ وله طريقة ٠

ما كان ليفكر يوما فى الشركة ٠ غير ان الولد كان يتبعه طول الوقت ٠ فى المقهى وعلى السكك ، وفى العزب ٠ كان يقف صامتا قريبا منه ، وعيناه تحدقان اليه ٠ ثم لقد جاءه يوما وقال :
ـ عم عبد الستار ٠ لن أسألك عن شىء ٠ ولن أتعبك أبدا وستجدنى خدوما ٠ أنت سيد المعلمين فى البلد ٠ والقرشين ستضيع منى ؟

وابتسم عبد الستار • وكان يهز رأسه :

ـ انا لم أشارك أحدا من قبل •

وتبعه الولد الى المندرة : جربنى • ولن تندم أبدا •

ايه • فى لحظة • لا يدرى تماما • كان ينظر الى الولد •• وكان واقفا بمدخل المندرة وعيناه الملهوفتان ترمقانه فى صمت وانتظار • وأعطاه كلمته ثم لقد أحس بعدها انه من الصعب ان يتراجع • وبدا الأمر كما لو انه فقد الكثير من هيبته • كانوا يقولون لـــه :

ـ ماذا جرى ؟ ألم تجد غيره ليشاركك ؟

ـ الشركة تزيد الواحد يا عبد الستار • لا تقلل منه •

وكانوا عندما يرونه مقبلا • يحدقون وراءه الى الولد • ثم يتجاهلونه بعد ذلك • وقبل ان يتحدثوا معه فى الأمر • كان هو قد أحس انهم لا يريدونه بينهم •

ـ أضرورى أن تسحبه وراءك فى كل مكان ؟

كان الولد ـ وقد تلفع بشاله الأبيض فى كل مرة يخرج معه ـ يقف بجواره يحدق نحوهم وهم يهمسون اليه ويتغامزون • ثم وكأنما خمن ما يقولون •• كانت تبـدو على وجهــه ابتســامة متسامحة • غير انهم ظلوا يهملونه ويبعدونه • وعندما يجلسون فى المقهى ـ ويبدو الأمر دائما وكأنما جاء عن غير قصد ـ كانوا يحيطون بالمنضدة فى حلقة لا يتركون فراغا بينهم • ويأتى بركات بمقعد ودون أن يبدو انه انتبه الى شىء كان يجلس وراءه • غير انه بعد لحظة كان يحس بساقيه وقد مدهما متلمسا لهما مكانا تحت المنضدة • كان يستطيع ان يزحزح مقعده قليلا ويجلس الولد بجواره • غير انه لم يفعل • كان يريد ان يعرفوا انه ليس شريكه بالمعنى الذى يفهمونه • وكان الأمر أيضا يبدو له غريبا أن يصبح الولد فى يوم وليلة واحدا منهم •

لابد ان اباه قد عرف من البداية · كان يمضي دون ان ينظر اليه · لم يحدثه أبدا · وكان ينهض مبكرا عن الأيام الأخرى · ويفتح الدكان · ويجلس هناك · وفى آخر الليل يأتى · يلقى بالسلام فى صوت خافت ويصعد السلم ويغلق باب المندرة وكانت أمه نادرا ما تنزل الآن هى الأخرى أو تحدثه · وكان يسمع أصواتهما خافته داخل الحجرة ·

وقالت امرأته : انها لا تكلمنى · تنزل ساعة الطبيخ والخبيز ولا تكلمنى · ما كان يظن ان الأمر سيغضبه هكذا · منذ نفض يديه من العمل وهو لا يسأله عما يفعل · وكان يقول لأصحابه دائما انه يريد أن يعيش ما تبقى له من أيام فى هدوء · وانه رأى مع القطن أوجاعا لم يرها أحد · والبركة الآن فى عبد الستار ·

ويسمع عبد الستار الكلام ويومىء صامتا · انه أدرى بما يحدث · كان يحس بأبيه دائما وراءه · فى كل خطوة يجده واقفا يرقبه ·

ـ ايه يا عبد الستار · دفعت كثيرا فى عزبة سلطان · أحمد الجزار اشترى من هناك بأقل خمس برايز ·

وفى كل مرة يفرغون جولة العربات من الأكياس كان يجده واقفا بالحوش · ويمسك اللمبة ويتقدم الرجال · وبعد ان تمضى العربات كان يقف بين الأكياس يتأملها ساكنا ثم يتحسس القطن بأصابعه · ويسأله من أين جاء به وعن الأسعار · ثم يمضى ·

قال له : أهو شريكك ؟

كان بركات خارجا من للبيت · وكان أبوه قادما · وقال بركات ·

ـ مساء الخير يا أبا الحاج ·

وانحنى وقبل يده · ووقف لحظة مترددا ثم مضى · وظل أبوه جامد الوجه ثم تمتم وهو يمر به ·

ـ أهو شريكك ؟

كان هذا يكفى ، وهو يعرف أباه ، وصمت ، ومنذ جاءته الرعشة فى يديه وهو لا يبدو كما كان ، وفيما مضى كان يتأرجح على مقعده مشيرا الى التجار الآخرين :

ـ مثل حمير التتريب على السكك ،

والآن يتقلص وجهه وهو يغفو فى مقعده متمتما ،

ـ السوق لا امان له ، القليل خير من الخراب ،

وفى كل مرة يعقد صفقة ، كان يقول له :

ـ كنت انتظرت يومين يا عبد الستار ،

ولو انه سار وراء كلامه لما اشترى شيئا ،

وفيما مضى بنى بيتا بالطوب الأحمر وطلاه بالمصيص ، وكانوا الآن يستخدمون البيت القديم فى مواجهتهم للخبيز وتربية الدجاج ، لم يفعل يوما كالتجار الآخرين فى البلد ، كانوا فى عناد البغال ، يضيع الواحد منهم صفقة طيبة بسبب بريزتين أو ثلاث ، كانوا يشترون بكل ما معهم وعند أول زيادة فى السعر يبيعون ، ثم يشترون مرة أخرى ، وطول الموسم يبيعون ويشترون فرحين بالقليل الذى يكسبونه ، يتطوح الواحد منهم على السكك ويعود آخر النهـار بقنطارين أو ثلاثة ثم يبيعهـم على الطريق قبـل أن يصل الى بيته ، وأحيانا يبيعهم قبل ان ينقلهم ، وعندما كان يظهر مشتر غريب فى المقهى ، كانت الأرض تنشق عنهم فجأة ، ويحومون حول الرجل ، يتنافسون على خطفه ، ايه ،، مثل حمير التتريب ، لم يفعل أبوه مثلهم ، ورغم ذلك كان فى بعض الصفقات يكسب ما يلهثون وراءه عشرة أعوام ،

ويوم اشترى الميزان القبانى ، ربما كان ذلك هو البداية ،

فقد تغير كل شيء من يومها · كان أبوه جالسا على مقدمة العربة · وصاح مناديا :

ــ عبد الستار ·

وخرج · كان الميزان على العربة · وأعمدته الخشبية بلمعتها الجديدة وحملاه فيما بينهما · وجلس أبوه مسترخيا بجوار النافذة يجفف عرقه · وينفض حجر جلبابه فى صوت كالفرقعة · كان الميزان منصوبا فى الحوش · وباب البيت مفتوح على سعته · ويميل أبوه مطلا من النافذة على الأولاد وقد تجمعوا أمام الباب · ويضحك ويقول : « العربجى حلف الا يأخذ أقل من ثلاث برايز · آه والله · ايه · يوم » ·

ثم وقف بباب المندرة ــ وكما يفعل شيخ البلد فى بيته ــ كان طرف الجلباب مطويا على ذراعه وصفق بيديه صائحا :

ــ يا جماعة · أعملوا لنا شايا ·

وجاءت أمه مهرولة · كانت تستطيع دائما من نظرة واحدة ان تفهم حقيقة ما يجرى · وقفت بالباب وكان وجهها مشرقا · وقالت :

ــ نعم يا حــاج ·

قالت كلمة حاج فى هدوء · وكأنما قالتها من قبل آلاف المرات · وثنى أبوه ساقه :

ــ أعملوا لنا شايا · ولعبد الستار · تشرب ؟

ــ آه ·

وقالت أمه : حاضر يا حاج ·

وكان يتأرجح · ثم قال فجأة :

ــ آه والله · لا ينقصنا الآن سوى أن ننوى على الزيارة ·

لم تعد أمه تظهر بعد ذلك بالمندرة حين يكون بها ضيوف ٠ وفى كل مرة تريد أن تعبر الشارع الى البيت القديم ٠ كانت تقف متوارية خلف الباب تنظر للشارع من جهتيه حتى يخـــلو من المارة ٠ وكانت النسوة من الجيران يزحفن الآن الى هناك ويقمن بالخبيز والغسيل وتنقية الغلال قبل تخزينها ٠

وفى نفس اليوم ٠ جاء ولد يحمل مقطفا من القطن ٠ ورأى أباه بالنافذة ٠ ومد يده ووخزه فى كتفه ٠ والتفت أبوه ٠ ثم لوح بيده كمن يطرد ذبابة :

ـ امش يا بنى ٠ لم نعد نشترى فكة ٠

كان الآن يدفع العربون للقطن وهو لا يزال لوزات خضراء ٠ ويشترى من التجار الآخرين عندما يتجمع لدى أحدهم كيسان أو ثلاثة ٠ وباع الحمار واشترى بغلتين ٠ وكانا يتجولان معـا فى العزب ووسط الحقول والشمسية مفتوحة فوق رأسه ٠

وفى البداية ٠ عندما كان أصحابه يحدثونه ٠ كان يزمجر :

ـ ماذا تقولين ؟ يكون عندى الميزان وأفعل مثل البعض ٠ أيه ٠ فكة ٠

ـ وهل لديك ما يغطى ؟

ـ عندى ٠ ثلاثة فدادين ٠ أبيعهم لو احتاج الأمر ٠

ـ ولم كل ذلك ؟ ووجع الدماغ ٠ وامامك السهل المضمون ٠

ـ مستورة والحمد لله ٠ والمسألة ٠٠ لا أنا ولا ابنى عينه فارغة ٠ ابدا وأنا رأيت التجار فى المراكز ٠ آه ٠ ناس أفاضل ٠ وفى المديرية أيضا ٠ لايفعلون مثلما يفعل اخواننا هنا ٠ لا يرخص الواحد نفسه أبدا ٠ لا يجرى ويتمرغ فى التراب ٠ وقلت هذه هى التجارة على أصولها ٠ ما كان لأحد أن يغير ما فى رأسه ٠ لقد صمم وانتهى الأمر ٠

وفى ذلك العام ـ الذى اشترى فيه الميزان ـ لم يكسبه شيئا ـ وربما يكون قد خسر قليلا · فهو لم يحك لأحد ما حدث · كان واقفا بجوار الباب المفتوح · وعربات الكارو تحمل الأكياس · وكان يتمتم :

ـ يعوضنا الله خيرا ·

وعندما رنت زغرودة أمه · همس اليه :

ـ عبد الستار · قل لأمك أن تسكت ·

فى كل مرة بعد رحيل العربات · يبدو البيت وكأنما قد ازداد اتساعا ويخيم صمت ثقيل · وآثار الأكياس لا تزال على الأرض · وفوق الجدران · ويطوى أبوه الميزان ثم يغلق باب المندرتين · ويقف وسط الحوش ينظر حوله متحسسا شعر ذقنه النابت · ثم ينحنى ويجمع القطن المتناثرة · وينتزع منها البذرة ·

ـ اعطها لأمك ·

ويحتفظ بالبذرة فى يده · وينفض جلبابه ويخرج ·

وسرعان ما تنقل أمه الكنبتين والحصير الى المندرتين · وتضع القلتين على قاعدة النافذة وتعد فرشتها على العتبة الداخلية ويهدأ البيت ·

يقول أبوه : فى حياة التاجر منا صفقة واحدة · ربما لا يأتيه من ورائها شىء ·

وربما خسر قليلا · غير انه سيظل طول عمره لا يتحدث ولا يذكر غيرها · آه ·· وكم يوما ؟ عشرون · عشرون يوما بالتمام · خلالها تحسم الأمور · والواحد كالفرخة الدائخة يروح ويأتى · لا يأكل ولا ينام · وكل يوم · وكل ساعة · لابد ان يقرر · ثم يؤجل قراره · آه والله · أيام لن أرى مثلها أبدا ·

كان الموسم يقترب من نهايته · والأهالى يجمعون حزم الحطب المتناثرة فى الأحواض · والسعر ثابت لا يتغير · اثنى عشر جنيها ·

كان يرتفع فجأة نصف جنيه · ثم يعود بعد يومين كما كان · وفى كل مرة يتغير السعر ·· كان المقهى فى السوق يزدحم بالتجار ·· وقد أخرجوا دفاترهم الصغيرة ·· وأخذوا يحسبون · ثم فجأة هبط السعر · واستمر فى الهبوط · كل يوم جنيه أو نصف جنيه · وبدا انه ــ وقد وصل الى سبعة جنيهات ــ لن يرتفع أبدا · كانوا فى البلدة يجرون باحثين عن التجار الكبار فى المركز ·

آه · كان عاما · حين تاتى سيرة التجار فى المركز وما يفعلونه كان يرى أباه وقد اعتدل فى جلسته على الأريكة ومنشة الخوص فى يده ويقول :

ــ ايه فكرتمونى · تلك السنة · لن يرى أحد ما رأيته أبدا ·

ويصمت محدقا فى الوجوه حوله · لقد سمعوا الحكاية أكثر من مرة · وما من واحد منهم الا ويذكر ذلك العام · غير انه فى كل مرة يبدو وكأنه يحكيها للمرة الأولى · كان يبتسم ويغمض عينيه قليلا · وقد ازدادت الرعشة بجانب فمه :

ــ سبعة جنيهات · من كان يستطيع ان يقول انه سيرتفع مرة اخرى ، عشرة أيام وهو ثابت على سبعة لا يزيد مليما · وهنا فى البلدة كانوا قد باعوا كلهم · ضربوا كفا بكف وقالوا العوض على الله وباعوا · وكانوا يقولون لى · ماذا تنتظر ؟· وبعضهم جاءوا الى · آه · واشتريت منهم · وأصروا يومها ان يأخذوا الثمن كله · وهل يعرف أحد ما سيحدث بعد ذلك ؟ آه والله · ولا مليم تأخر لهم · وعندما كانوا يرون الأكياس تدخل البيت ·· كانوا يديرون وجوههم بعيدا · كانوا يظنون اننى اخفى عنهم شيئا · وكانــوا يسألون وعيونهم تأكل وجهى ·· ماذا يجعلك تنتظر حتى الآن ؟ وماذا اقول ؟ لم اسأل نفسى أبدا أيامها هذا السؤال · كم يوما مرت ؟ وكانت امرأتى تلطم وجهها وتصيح : فى ستين داهية القطن · صحته · » حسبت الخسارة لو اننى بعت · كل ما املك ، البيت

وخلافه لا يكفى • وكانت هناك أيضا ثلاثون قنطارا لم أدفع منهـا سوى العربون » •

كان منحنيا يتوضأ • وقد شمر ذراعيه • وكانت أمه تصب الماء • وقال :

ــ عبد الستار • أتظن انه يجب أن أبيع ؟

ــ لا أعرف • كلهم باعوا •

ــ آه كلهم •

وصاحت أمه : وأنت يا حاج • قل له يا عبد الستار • خسارة خسارة ولا ما نحن فيه •

وقال : لو اننى بعت ؟

وكان متربعا على السجادة بعد الصلاة • وقال :

ــ سبعة ؟ أبيع بسبعة ؟ لم يحدث أبدا • لو انه عشرة • أو حتى تسعة • وما حدث بعد ذلك كان شيئا عجيبا • ارتفع السـعر فجأة الى ثمانية وصاح أبوه •

ــ كنت أعرف • ما كان لها ان تمر هكذا أبدا •

وفى اليوم التالى ارتفع السعر الى تسعة • وبدا أبوه شديد الشحوب وكان شعر صدره الأبيض متربا • وعمامته مفكوكة غير ثابتة على رأسه • وعيناه مضطربتان لا تريان أحدا • ما كان ليبقى لحظة فى البيت • وكان يصيح بأصحابه عندما يحدثونه عن البيع •

ــ تقولون أبيع ؟ بعد كل ما حدث وابيع • فات الصعب • سترون يومان فقط • يومان •

كان يذهب كل يوم الى المركز • ويعود فى الليل • وتقول أمه وهى تدعك قدميه بالماء الدافىء : خير يا حاج ؟

ــ اسكتى ياولية • لا تفتحى فمك أبدا •

ويحكى أبـوه :

ـ تمددت بين الأكياس · ووضعت الشال الأبيض على وجهى · نفس هذا الشال لم أغيره أبدا · لابد أننى نعست · ما رأيته لابد أن يكون وأنا نائم · كان جالسا فوق الأكياس قرب السقف صغير كالطفل · وكان يعبث بالقطن المتفجر من ثقوب بطرف الكيس ·

وهمس دون أن ينظر الى :
ـ عشرة أيام أخرى ·

أقول عندما انتبهت · لم أجد أحدا · وفتشت بين الأكياس · وكان الباب مغلقا من الداخل · كنت أرتعش والعرق يبلل وجهى · قلت اذا كان حقيقة كما يبدو · ايه · وانتظرت · كان السعر أنتم تذكرون · توقف عند عشرة ومر أسبوع ووصل الى خمسة عشر · وأنا ولا هنا · هادىء تماما لا أسمع · والناس تصيح مدبولى ماذا تنتظر ؟ وفى اليوم العاشر لم يكن بالبلدة غيرى وفى المركز كله خمسة آخرون · ووصل السعر الى ثلاثة وعشرين ·

كان بالداخل ملفوفا بالأغطية · وكان شاحبا يرتعش · ورأسه معصوب بالفوطة وقال :

ـ حمل العربات يا عبد الستار ·

وعندما نهض بعد ذلك · ظلت الرعشة فى يديه وبجانب فمه ·

كان يسترخى فترة النهار على الأريكة أمام الدكان · يرش الماء · وينتظر حتى تجف الأرض · ثم يرش مرة أخرى · وقد وضع بجواره الجردل الممتلىء والكوز · ويذهب الى المقهى · ويعود · ويميل برأسه محدقا داخل الدكان · ويقول :

ـ عبد الستار لم نعد نرسل أحدا للعزب ·

وفيما مضى كانا يتناوبان المرور بعدة الحلاقة على الزبائن

فى العزب والحقول · وعندما قبض أول مكسب له فى القطن ·· قال فجأة وكانا يقفان فى حوش البيت القديم :

ـ وأين نجد الوقت لنذهب اليهم · فليأتوا الى الدكان ·
ويميل مرة أخرى · محدقا الى الداخل ويقول :
ـ عبد الستار أتسمعنى ؟ أقول لو أننا أرسلنا ولدا الى هناك · لا يصح أن نقطع مرة واحدة ·
ـ أين ؟

ـ عزبة راشد · كثيرا ما يطلبون منى أن أرسل لهم أحدا · لاتعجبهم حلاقة داوود · ويبدو انه يتراذل عليهم · ايه · الآن يتحسرون على أيامى ·

ـ وكم ولدا عندنا حتى نرسل واحدا ؟
ـ آه صحيح ·

ويصمت لحظة · ثم يقول :
ـ لابد ان يكون لنا زبائننا · سأبحث لك عن ولد ·
ـ كل مرة تقول ذلك ولا تفعل شيئا ·
ـ أنا لا أفعل ؟ طيب ·

وفى الليل · يمضى الى المقهى · كان وأصحابه يأخذون جولتهم على السكة الزراعية وفى حوض قصب مفتوح · ثم يعودون الى المقهى · كان لهم ركن بالطرقة الخارجية يطل على الترعة · بعيدا عن الحركة وضوء الكلوب · وهناك كانوا يقضون الساعات فى حديث عن أخبار من يعرفون من تجار القطن الكبار · انها أسماء لمعت فى صفقات كبيرة · وتحدث الناس عنها طويلا فى انحاء المديرية · وكانوا هنا أيضا فى بلدتهم البعيدة لابد وأن يسمعوا بها · ومنهم من رأى اصحابها · ويهزون رؤوسهم مستندين الى درابزين المقهى الخشبى · ويحدقون فى صمت الى انعكاسات الضوء المتناثرة على سطح مياه الترعة ·

ـ رجـــال ٠

آه ٠ وكم واحد منهم فى بلادنا ٠

ـ صفقة واحدة تجعله أميرا طول حياته ٠

ـ المسألة عندهم مزاج ٠ المهم كيف يضرب ضربته ٠ هنا الفن والمعلمة ٠ يظل الواحد منهم ثلاث أو أربع سنين لا يكسب شيئا ٠ ثم فجاة يضربها فتدوى ٠

ـ وماذا يعنى ٠ لو ان الواحد منا لديه ما لديهم ٠ لفعلنا اكثر منهـــم ٠

ـ آه ٠ جئنا للـــكلام ٠

ويتثاءبون ٠ ويصمتون ٠ والمقهى قد اخذ يخلو من الزبائن ٠ وضوء الكلوب قد أصبح خافتا ٠ تشوبه حمرة خفيفة ٠ ثم كانوا فى النهاية يتذكرون المرات التى ارتفع فيها السعر فجاة فى السنوات الماضية ٠ آه كم من فرصة ضاعت ٠ ويحسبون ما كان يمكنهم ان يكسبوه لو انهم كانوا قد انتظروا قليلا ٠ ولكن من يستطيع ان يقول انه كان يعرف ؟٠

(٣)

في الصباح يأتي بركات · يقف بباب البيت تفوح منه رائحة اللبن الرائب · ويختلس النظر داخل الحوش · ثم يتساءل ان كان عبد الستار موجودا ؟

كان يعمل تاجرا للالبان · يجوب العزب في الفجر · ويعود مع طلعة الشمس · فيمضي بأقساط اللبن الى معمل الجبن · وبعد ان يغير جلبابه الأزرق السميك · وبردعة الحمار · يأتي الى شريكه ·

وفيما مضى كان يكتفي ببعض شكائر القطن والمقاطف يجمعها في تجواله · وكان يبيعها لأول تاجر يقابله في البلدة قبل ان يمضي الى المعمل · كان المكسب سهلا · وكان يضع النقود التي تأتيه من القطن جانبا والآن قد وصل المبلغ الى ثلاثمائة جنيه · راح يتسكع في المقهى · وكان يسمعهم هناك يتحدثون عن مئات الجنيهات التي تذهب وتأتي · وعندما يجيء عبد الستار كان ينقل مقعده ليكون قريبا منه · ما كان يحلم يوما ان يصبح شريكا له · كان مع الآخرين

يتابعون أخباره طول الموسم · وفى العام الماضى باع عبد الستار فى منتصف الموسم · وكان السعر خمسة عشر · وكانت العربات فى طريقها للمحطة · وكان بركات عائدا من المعمل · ورأى الاسم مطبوعا فوق الأكياس · واستدار ولحق بالعربات · وسار قليلا بجوارها · وقرأ الأسم مرة أخرى · ثم عاد الى بيته · كان لديه ثلاثة أكياس من القطن حجزها جانبا · وأراد أن يجرب حظه بها وينتظر ـ كما يفعل عبد الستار ـ الى نهاية الموسم · وقال ان عليه ان يظل هادئا لا يستجيب لأية زيادة مفاجئة · ولقد رأى بعينيه من قبل كيف كانت الضربة الكبيرة تأتى دائما فى آخر الموسم · والآن يرى عبد الستار يبيع والموسم ما كاد يبدأ · وأحس أنه خدع · وقبع يومها فى البيت مقهورا · ومرت أيام قليلة وكان ما يزال حائرا يذهب الى المقهى ويجلس صامتا · لا يجرؤ على الاقتراب من عبد الستار أو سؤاله · ثم لدهشته أخذ السعر فى الهبوط · ووصل فى نهاية الموسم الى عشرة · ولم يرتفع بعد ذلك ·

قال لعبد الستار : ضربة معلم · ما كان أحد غيرك يفعلها ·

وابتسم عبد الستار ·

كانا راقدين بمصلى على جانب الطريق · وكانا فى طريقهما للبلدة بعد جولتهما فى العزب · وقد ربطا البغلة والحمار فى ظل شجرة ·

وقال عبد الستار : القطن ليس له كبير ·

كان الجو حارا · وقد بللا قدميهما · واسترخيا فى الظل ·

وقال بركات : وكيف عرفت يومها ان السعر سينزل ؟

ـ لم اكن أعرف ·

ـ أيه · لم تكن تعرف ؟

أومأ عبد الستار مبتسما ، وكان يرقب الحيرة واللهفة على وجهـــه :

– لو قال لك أحد انه يعرف ، فهو يضحك عليك ،
– وماذا تفعل ؟
– ترقب السوق وعيناك مفتوحتان ،

– السوق ، كل واحد يقول السوق ، وأين هو السوق ؟

وضحك عبد الستار : سوق القطن رجاله ، تجاره الكبار ، وعلى الواحد أن يكون قريبا منهم ويخمن الوقت المناسب ،



فى كل مرة يأتى بركات كان يحمل أخبارا جديدة ، هؤلاء الذين سيبيعون فى العزب المجـاورة ، الكميـات التى لديهم ، والتجار الذين اشتروا بالأمس والأسعار التى اشتروا بها ، وعدد الأكياس التى بمنزل كل منهم ،

وكان عبد الستار – حين يأخذ بركات فى سرد هذه الأخبار – يرمقه بنظرة معتمة ،

– وكيف عرفت ؟

ويتمتم بركات مسبلا عينيه : « أمس صليت العشاء بعزبة أبو طويلة ،، وبعد الصلاة جلسنا نتكلم » ،

– ومشيت هذا المشوار لتصلى هناك ؟
– قلت أمشى قليلا ،

وقال عبد الستار لامرأته أن الولد يتعب نفسه كثيرا دون فائدة ، فهو لن يدخل يوما فى منافسة مع التجار هنا أو فى أى مكان آخر ، والقطن تحكمه أمور أخرى غير ذلك ، غير أنه فى كل مرة كان يطيب خاطره ،

ـ والله يا بركات من غيرك لا أعرف ماذا كنت أفعل ٠
ـ لا تقل ذلك يا عم عبد الستار ٠ انت الكل فى الكل ٠

كان يأتى حاملا قسطا صغيرا ممتلئا باللبن ٠٠ أو سلطانية قشدة ، ويصيح بالباب : يا أبا الحاج ٠٠ قلت آتيه بشىء من اللبن الطازج قبل أن يخرج ٠

ويقف لحظة بالحوش ، ثم يستدير فجأة الى المندرة ، ويفتح البـاب :
ـ عمرانة يا عم عبد الستار ٠٠ عمرانة باذن الله ٠

ويسير بين الأكياس ٠ ويضغطها بيده ٠ وحين يرى كيسا لا يزال مفتوحا كان يربت عليه ويقول : يوم أو يومان ونغلقـه هو أيضا ٠

وكان يقف يوما وسط المندرة ٠ ثم انحنى وصاح :
ـ وكتبت الأسماء يا عم عبد الستار ؟

واعتدل فجأة : لم تكتب اسمى ؟

كان عبد الستار واقفا بباب المندرة ٠ ثم استدار وخرج ، ولحق به بركات :
ـ لم تكتب اسمى ؟
ـ اصبر على رزقك ٠٠

ووقف بركات صامتا ٠ كان ينظر حوله ٠ وقد بدا وجهه مضطربا ، وقال :
ـ الست شريكك ؟

وقال عبد الستار : شريكى ٠٠

ثم التفت اليه : أول مرة وتريد أن أكتب اسمك ؟
ـ آه ٠٠ طيب ٠

وظل صامتا بعض الوقت · منحنيا على نفسه ، ثم قال :
ـ معك حق يا عم عبد الستار · نكتبه الموسم القادم ·



حين يكون أحد التجار قادما من المركز · كان بركات يمر مبكرا قبل أن يذهب الى المعمل · يقف بحماره وأقساط اللبن المثلثة تحت نوافذ البيت مناديا :
ـ عم عبد الستار ·
ويطل عبد الستار من الشباك ، ويقول بركات :
ـ جاء واحد من المركز ·
ـ من ؟
ـ لا أعرف · رأيت حنطوره الآن على المحطة ·
ـ وأين يذهب ؟
ـ أما هذه فلا يعرفها أحد غيرى · سمعت الخبر أمس فى عزبة أولاد شاكر · سأذهب الى المعمل وأعود اليك ·

وسرعان ما يكون الخبر قد انتشر بين التجار فى البلدة ·· ويمضى الحنطور وسط الشوارع متجها الى السكة الزراعية وقد أغلق غطاؤه · فلم يظهر من التاجر سوى حذاؤه وذيل جلبابه الصوفى · وما يكاد الحنطور يختفى مع أول منحنى على السكة المؤدية للعزب حتى يكون التجار قد بدأوا يتبعونه · كانوا يرمحون ببغالهم على الطرق الجانبية وبين الحقول وعيونهم على الحنطور ·
ويقول بركات :
ـ لا تتعب نفسك · أنا أعرف مكانه ·

وتبدو العربة أمامهما ، وجمهرة من الأولاد تعدو خلفها وسط الغبار ، ويقول عبد الستار :
ـ بكم تظنه يتاجر ؟
ـ الف ؟

ـ آلاف ..

ـ كـم ؟

ـ عشرون .. ثلاثون .

ـ آه .. لابد انه يرانا ملاليم . وهل يشترى بنفس الأسعار التى نشترى بها ؟

ـ وأحيانا باقل . لن يشترى قنطارا طبعا . ويكفى الواحد أن يقول انه باع للتاجر الفلانى . أما أصحاب القنطار الواحد والنصف قنطار فهم زبائننا .

ـ أحسن الزبائن .

ـ آه أحسنهم . ترى حلمة أذنك قبل أن يبيعوا لك .

ويمضى الحنطور مبتعدا . ويختفى بين الأشجار . غير أنهم هناك على السكك الجانبية كانوا يتبعون سحابة الغبار وهى تتماوج بين فروع الأشجار .

ويقول بركات :

ـ أنظر . احمد الجزار هناك فى البر الثانى ينظر الينا .

ـ آه .. وهل يفوته ذلك ؟

ـ مائة وعشرون قنطارا . سمعتهم ليلة أمس . لابد أنه يدفع فورا .

ـ لا يدفع بالعربون غيرنا . لا يكون معك شيئا . وتبيع وتشترى أيضا . نعمة من عند الله .

ـ آه نعمة . وتكون الخسارة موتا .

ويعبر الحنطور الكوبرى الى العزبة . ويسحب فى طريقه الأهالى الراقدين دائما تحت ظلال الأشجار على الشاطىء وفوق المصاطب . ويتبعان الضجة وسط الحوارى الى الساحة . وفى طرفها يبدو بيت عريض الواجهة من دورين ، وقد وقف الحنطور أمام الشكمة . وكانت ترتفع عن الأرض بثلاث درجات سلم .

ويهمس بركات :

ـ بيت الحاج احمد نور الدين ٠

كان الباب مفتوحا على سعته ٠ وأنفار يدخلون ويخرجون ، وكان التجـار الآخرون قد سبقوهما واندسوا بين الأهالى الذين تجمعوا بأطـراف السـاحة وبمداخل الحوارى ٠ كانوا يحومون فى صمت حول الدار ، ويطلون من فوق جدار الشكمة ٠ ثم يعودون الى قعدتهم وسط الأهالى ٠

ويأتى رجلان بصفيحة ماء من الدار ٠ ويغسلان الحنطور ، ويضعانه فى الظل ٠ ويمضيان بالحصان الى الداخل ٠

وبعد الغداء ، يخرج التاجر الضيف ومعه صاحب الدار ، ويجلسان فى الشـكمة ٠ ويتناولان الشاى ٠ والأنفـار يقفون حولهما ٠ ثم يحملون المقعدين الى السـاحة ٠ ويهبط التاجر وصاحب الدار ويجلسان فى ظل الشكمة ٠

لقد خفت حدة الشمس قليلا ٠ وكانوا يرشون المـاء أمام الدار ٠ ويأتى الأنفار بالميزان القبانى وينصبونه غير بعيد عنهما ، ويتقدم التجار ويساعدون الأنفار فى حمـل الأكياس من داخـل الدار ٠ وكانوا يأتون بها من باب جانبى ٠٠ ويقبع تاجر او اثنان منهم على جانبى مقعد التاجر الضيف ٠٠ كانا يقبعان فى هدوء ، ويحدقان فى صمت نحو الميزان ، وقد بدا على وجهيهما ترقب خفى لحركته ٠ وكانا يستطيعان بمجرد التفاتة صغيرة من رأسه أن يخمنا فى سرعة ما يريد ٠ وعندما يتعلق الأمر بشىء يأتى من داخل البيت ٠٠ كان احدهما ـ قبل أن ينتبه صاحب الدار ـ قد مد رأسه من فوق الشكمة وصاح بما يريده الضيف ٠ ويظل زميله رابضا بجوار المقعد وقد فك المنديل الكبير الذى يحمى رأسه من الشمس وراح ينش الذباب عن الضيف ٠

كان الأنفــار حول الميــزان يصيحون بالرقم عقب وزن كل كيس .. ويخرج الضيف دفتره • ويقف التاجران على جانبيه يختلسان النظر من فوق كتفيه • وعندما يبدو لهما انه اخطأ الرقم كانا يهمسان له بالرقم الصحيح • يفعلان ذلك وعيونهما على الميزان دون أن يبدو انهما يوجهان همساتهما له • وكانا أيضا حين يقوم باجراء عملية حسابية فى جانب الصفحة بدفتره يهمسان له فى لحظة بناتج العملية • انه نفس الرقم الذى ينتهى اليه بعد قليل فى دفتره • ثم يستجيب لهما اخيرا ، ويكتب ما يهمسان به • غير انه يظل طول الوقت لا يلتفت نحوهما •

وهمس بركات :

ـ ماذا يقولان له ؟

ـ مالك بهما •

كانا يجلسان متربعين بجوار الميزان ، وقد أمسك كل منهما بمقود ركوبته • وكان بركات يحدق فى اتجاه الشكمة لا يرفع عينيه عن وجه التاجر •

وعندما نهض التاجر أخيرا ـ بعــد الوزن ـ متجهــا الى الحنطور • قفز بركات وشق طريقه الى هناك ، ووقف ساكنا حتى تراجع صــاحب الدار ومن معــه ، وكان الحنطور يدور متاهبا للعودة • ومد بركات رأسه داخله • كانت رائحة العطر تفوح قوية • وحدق فى دهشة ، وكان يوسع من خطواته ليظل بجانب الحنطور ، ثم همس لاهثا :

ـ كيف الحال هذه الأيام ؟

ورمق التاجر الكبير العينين الملهوفتين والفم المتهدل • ثم نظر أمامه « هؤلاء الناس لا تفهم أبدا ماذا يريدون » •

وينطلق الحنطور عائدا ٠

ويخرجون من العزبة واحدا وراء الآخر ٠ ثم ينطلقون على السكة الرئيسية متجاورين ، وعيونهم على الحنطور الذى يتأرجح أمامهم على بعد قريب ٠ وعندما أراد بركات أن يجرى ليلحق به ٠٠ أمسكوا به ودفعوا به الى المؤخرة ، ورمقه أحدهم بنظرة ملتهبة :

ـ أتظن اننا نسينا ما فعلته هناك ؟

وعندما كان الحنطور يتوقف لسبب ما على السكة أو يخفف من سرعته كانوا هم أيضا يبطئون حتى ينطلق مرة أخرى ٠ كانوا يحتفظون بالمسافة ثابتة بينهم وبينه حتى يخرج من البلدة ٠

●

ـ جنيه يا عم عبد الستار ٠ جنيه ٠

أطل عبد الستار من الشباك ، ورآه واقفا يلهث فى منتصف الشارع ، وصاح بركات متقدما :

ـ جنيه مرة واحدة ٠

ـ من أخبرك ؟

ـ من دقيقتين على المحطة ٠ جاءوا بالخبر من البندر ٠

لبس عبد الستار جلبابه وخرج ٠ وكان بركات يضحك ويضرب رأسه بيده :

ـ ألم أقل لك ٠ جنيه حتة واحدة ٠ من صغرى وهم يقولون ان الخير يجرى بين قدمى ٠ لم أحك لك ٠ عندما ولدت كانت يداى مفتوحتين ٠ ما من مرة وخاننى الحظ ٠٠ سترى ٠

كانت العتمة خفيفة بالشارع ٠ وكان الشارع خاليا ٠ وظلا واقفين متجاورين أمـــام البيت ٠ ثم ظهـــر رجل قادما من ناحية السوق ، وقال عندما مر بهما :

ـ مساء الخير يا عبد الستار ٠ يقولون ان السعر زاد جنيها ٠

ـ أين سمعت الخبر ؟
ـ فى السوق • والمقهى • زيطة هناك •

كان المقهى مزدحما بالتجار • وقد أخرج بعضهم دفاترهم الصغيرة ذات الجلد السميك وانتحوا جانبا بجوار ضوء الكلوب وأخذوا يحسبون •

ـ تعال يا عبد الستار •
وقال عبد الستار :
ـ من جاء بالخبر ؟

وتبادلوا النظرات ، وقال أحدهم :
ـ كانوا فى القطار يقولون • حتى السائق نفسه قال انه سمع الخبر قبل أن يتحرك من البندر فى العصر •
ـ ألم يذهب أحد الى المركز ؟
ـ احمد الجزار هناك من الظهر • وسيأتى بعد العشاء •
ـ ألا تصدق القادمين من البندر ؟
ـ كنا عرفنا أخبارهم فى المركز •

فى عودتهما • كان عبد الستار صامتا ، ويداه خلف ظهره • وكان الوقت متأخرا ، وقال بركات حين دخلا الحارة المعتمة :
ـ ماذا لو أننا بعنا ؟
ـ اصبر يا بركات •
ـ ثلاث جنيهات فى القنطار • خير وبركة •
ـ اصبر •
ـ طيب • فرصة • والله أعلم بما فى الغيب • والحاج عبد الجواد كان يبيع الليلة فى المركز • ألم تسمع أحمد الجزار ؟
ـ سمعته • لا أصدق أنه يفعلها • القطن لا يزال فى الأرض •• ايه • لا أعرف • ربما كانت احدى ألاعيبهم • غدا نذهب ونرى •

(٤)

أخذوا قطار العصر الى المركز · كانوا خمسة ، وكان بركات يلبس جلبابا جديدا وشالا جديدا ، وقد حلق ذقنه وقص شعر رأسه ، ولبس حذاء كان يمشي به متثاقلا ·

حين رأوه قادما ضحكوا ، وقالوا :
ـ ماذا فعلت بنفسك ؟

قال لأمه عندما جاءته بالملابس من الصندوق انه ذاهب الى المركز ليعرف الأسعار ، ولم يقل أكثر من ذلك ·

وفي المركز راحوا يتسكعون في الشوارع ، ومن مقهى الى مقهى ، وقد تركوا قيادتهم لعبد الستار · فهو يعرف أسماء الكثيرين من التجار الكبار في الناحية ، ويرددها دائما بطريقة من جلس وتحدث معهم · وكان يعرف المرات التي حققوا فيها صفقات ضخمة ، وهو أيضا على شيء من التهور · يسير مندفعا بكتفيه ، وحين يتحدث الى الكبار يفعل ذلك وعيناه في عيونهم لا تطرفان ·

ومروا بالسوق · وأشار واحد منهم الى بيت قديم ، وقال ان خاله يقيم به · ووقفوا قليلا وتأملوا البيت ، ثم استمروا فى تجوالهم · واشتروا حلوى من الدكان ووقفوا أمام « الفترينة » يأكلون · وكان بركات يضحك · وحكى عن امرأة بيضاء الوجه رآها تنظر من نافذة فى أحد الشوارع وكانت كتفاها عاريتين · وقالوا انهم أيضا رأوها ·

وأثناء صلاة العشاء وقفوا قرب باب الجامع متجاورين فى الصف الأخير · وكانوا يحدقون فى وجوه القادمين ، وبعد انتهاء الصلاة ظلوا فى مكانهم حتى خرج الآخرون ، ثم توجهوا الى المقهى ·

كان المقهى كبيـرا · وأضواؤه القوية تمتـد حتى نهـاية الشوارع الجانبية ، وكان له سلم من خمس درجات وطرقه خشبية بسياج ترتفع قليلا عن الأرض تحيط به من الجانب والأمام ، ونوافذ عريضة من الزجاج المحبب ·

قال عبد الستار هامسا :

ـ اخلع الحذاء ·

انحنى بركات وخلع الحذاء ، ووضعه تحت ابطه ·

كانوا يتحركون فى الطرقة الخارجية دون أن يسمع لأقدامهم صوت · مختلسين النظـر الى الداخل · وفى الأيام الأخرى ـ خلال النهار ـ كانوا يدخلون المقهى ويجلسون فى استرخاء · غير أنهم فى موسم القطن ، وبعد صلاة العشاء ـ حين يبدأ المقهى سهرته ـ كانوا يترددون كثيرا فى الدخول · فهم لا يريدون أن يكونوا سببا فى ضيق أحد أو احراجه · وهم أيضا يعرفون أنهم لن يكونوا على راحتهم ، وربما لا يحصلون على اخبار جديدة وهم بينهم فى الداخل ·

كانوا يجلسون فى العتمـة الرقيقة بين مستطيلات الضـوء الممتدة على الطرقة الخشبية ، وكانوا حريصين دائما على الا يلمسهم

الضوء · وفى مواجهتهم كانت عربات الشحن المحملة بأكياس القطن تقف على قضبان الاحتياطى ·



اعتاد أعيان الناحية أن يأتوا لقضاء السهرة فى المقهى · انهم أيضا من كبار تجار القطن فى المركز · كانوا يأتون فى عربات الحنطور بعباءاتهم السوداء المطرزة الأطراف ، ويتمهلون كثيرا بعد أن يهبطوا من العربات ، ويبدون أمام باب المقهى ولمعة الضوء على وجوههم وكأنما ازدادوا وقارا وهيبة ، ثم يتحركون صاعدين السلم فى بطء ·

فى كل مرة تقف عربة أمام سلم المقهى كان عبد الستار ورفاقه يحدقون نحو القادمين ويتهامسون بأسمائهم · لقد رأوهم كثيرا من قبل · وكانوا يبيعون لهم أيضا · كان الواحد منهم يأتى مع أكياسه الى المركز · وطول الوقت يتلفت حوله · ويكون التـاجر الكبير على مقعده أمام بوابة المخـزن بجلبابه الصوف الخفيف ووجهه المترب قليلا · ويقف التاجر القادم من القرى جانبا يحدق الى جوف المخزن الهائل وضوء النهار يتسرب فى شعاعات مائلة من النوافذ الصغيرة قرب السقف · وتبدو الأكياس متراصة فى مستطيلات متناسقة وبينها ممرات رفيعة ، ويأتى العمال بالميزان ، ويهمس التاجر القادم من القرى فجأة :

ـ آه ·· طبعا · أنا أيضا وزنتها قبل مجيىء ·

وتتأرجح الأكياس واحدا وراء الآخر بين أعمدة الميزان ·

ـ ايه ·· وكأنهم يزنون طوبا ·

مجرد أن يعلقوا الكيس · ثم يلقون به بعيدا · ما كان يستطيع أن يلاحقهم ويتمتم :

ـ العوض على الله ·

ثم كان يتربع بجوار مقعد التاجر الكبير ، ويقول :

ـ انا أعرف • كل مرة يحدث ذلك • غدا أو بعد غد • ستری • ان لم يرتفع السعر ؟

ـ لم لا تعود بها وتريحنى •

وينهض التاجر الكبير ، ويبقـر أحـد الأكياس بمطوأته ، ويتحسس القطن بأصابعه :

ـ مخلوط ؟

ـ وهل أفعلها معك يا حاج •

ـ وماذا يمنعك ؟ أصحاب ؟

ويبقر كيسا آخر ، ويقول :

ـ وربما كان نصفه حراما •

ـ استغفر الله يا حاج •

ـ أبغض شيء على نفسى • الواحد معكم ان لم يفتح عينيه على آخرها •• عندى ما يكفى من المتاعب •

وتختفى الأكياس داخل المخزن • ويقف التاجر القادم من القرى بالبوابة ، ويرى أكياسه وقد أخذت مكانها بين الرصات ، ثم يمضى مقوسا كتفيه محدقا الى الأرض •



كانوا يجلسون فى الطرقة الجانبية بين مستطيلات الضـوء يرقبون عربـات الحنطـور تأتى وتذهب ، ويسمعون صرير باب المقهى •

وفى بداية السهرة تكون النوافذ لا تزال مفتوحة ، ومن حين لآخر يمد أحدهم رأسه حتى تصبح عيناه فى مستوى قاعدة النافذة ، ويحدق قليلا •

ثم يغلق الزجاج ، وتخف حدة الضوء فى الطرقة •

(٥)

همس عبد الستار :

ـ الحاج محرز ··

وزحف بركات ، ومد رقبته :

ـ من ؟

كان الحنطور واقفا أمام المقهى وقطع النيكل التى رصع بها الغطاء والجوانب وسرج الحصان تتألق فى الضوء ·

وقال عبد الستار :

ـ الحاج محرز فى المديرية ·· ألم تسمعوا به ؟

ـ أيهم ؟

كانوا ثلاثة هبطوا من الحنطور ، وقال عبد الستار :

ـ الذى بيده الطربوش · رأيته مرة فى المديرية · الليلة سيقررون شيئا ؛ لا يأتى هكذا أبدا · لابد أن الحاج بيومى قد استضافه ·· هذا حنطوره ·

كان الرجل شديد النحول · وصعد السلم ووراءه الآخران ، وكان يخطو نحو الباب الزجاجى ، واستقبلته صيحات مهللة · وسرت فى الجو رائحة العطر القوى ·

ونهض الرجال فى الطرقة على ركبهم ، والصقوا وجوههم

بالزجاج المغلق · كان الزجاج محببا ، ولم يروا شيئا · وكانت الأصوات تاتى ضعيفة غير واضحة ، وقال عبد الستار :

ـ سيفتحونها · لن يتحمل الضيف الحر فى الداخل ·

غير أنهم بعد لحظة · سمعوا ضجة الأصوات ، ورأوا الرجال يخرجون · وكان الحاج محرز يهبط السلم يتبعه رفيقاه ، ووقف التجار الآخرون على رأس السلم حتى صعد الى الحنطور ·

وانزلق عبد الستار من فتحة فى سياج المقهى ، وهمس :

ـ سارى الى أين يذهبون به ؟

ـ انتظر · سناتى معك ·

والتفت · وأشار اليهم أن يبقوا · غير أنهم انزلقوا واحدا وراء الآخر من الفتحة ·

ودار الحنطور دورة واسعة · ودخل الشارع عائدا ·

تبعوا العربة عن بعد · وكانت تمضى مسرعة فى عتمة الشارع ، ثم اختفت فى الحوارى الملتوية · كانوا يوسعون من خطواتهم مهتدين بضجيجها وسط السكون · ثم اختفت الضجة أيضا · وكانوا يتخبطون داخل الحوارى · ثم وجدوا أنفسهم فى وسعاية ضيقة ، وكانت البيوت حولهم مغلقة النوافذ · وكانوا على وشك أن يعودوا · ثم سمعوا صهيل الحصان ، وهمس عبد الستار :

ـ عند الكوبرى ·

واندفعوا مسرعين ·

كانت العربة هناك تحت الفانوس على شاطىء النهر · على بعد خطوات من الكوبرى · وكان غطاؤها مكشوفا ، وقد خلع الحاج محرز طربوشه · فبدت رأسه فى الضوء الشاحب صغيرة صلعاء · وكان مسترخيا فى ركن العربة والاثنان يحيطان به ·

وهمس عبد الستار :

ـ هذا هو المكان المناسب ليقرروا أمورهم ·

ـ هنا ؟

ـ أنت لا تعرفهم · يظلون طول الوقت يتحركون هنا · وهنا · وداخل البيوت · والمقاهى · ثم فجأة وهم على الطريق يتكلمون ·

كانوا يقفون بمدخل الحارة المطلة على النهر · ثم عبروا الشارع ، وساروا متمهلين فى اتجاه العربة ، وهمس عبد الستار :

ـ انه يعرفنى ·

ـ من ؟

ـ الحاج بيومى · لا أريد أن يرانى ·

ومروا بالعربة دون أن يلتفتوا · وكأنما يتنزهون ، وكانت عيونهم ترقب ما يدور بداخلها · وكان وجه الحاج محرز فى مواجهتهم · وقد رمقهم بنظرة سريعة · ثم التفت الى النهر · وكان الآخران قد أعطيا ظهريهما للشارع · وتلكأوا قليلا بعد أن مروا · وكان الثلاثة فى العربة صامتين ·

كانت ليلة مقمرة · والهواء يهب رقيقا رطبا · ومياه النهر معتمة لا يسمع لها صوت · وبدت دوامات صغيرة فى الضوء الشاحب أمام أعمدة الكوبرى ·

وقفوا مستندين للسياج · وسمعوا سعلة خافتة تأتى من العربة ، ثم ترامى الحديث اليهم ··

ـ كانت هنا على ما أذكر · عزبة فى البر الثانى ·

ـ عزبة من ؟

ـ لا أذكر · عشر سنوات أو أكثر · جئتها مرة · كان بها منحل · لم أذق فى حياتى عسلا أحلى منه ·

ـ منحل ؟ لا يوجد فى ناحيتنا ·· ربما تقصد عزبة احمد الخولى ·

ـ آه ·· الخولى ·

ـ قبلنا بمركزين ·

ـ وحديقة مانجو · خمسة فدادين · وبرتقال · أرض فاكهة من الدرجة الأولى ·

وساد الصمت فى العربة ·

ـ هذا صحيح · لا يوجد مثلها فى الناحية ·

ثم سمعوا صرير العجلات · والتفتوا ورأوا العربة تسير متمهلة بامتداد الشاطىء · وتقف عند الفانوس الآخر تحت شجرة توت · ومد أحدهم ذراعه وأمسك بفرع كان يتدلى فوقهم · ثم تركه · وانطلقت العربة مرة أخرى ·

وقال عبد الستار :

ـ أنا أعرف أين يذهبون ؟

ـ أين ؟

ـ بيت الحاج بيومى ·

كان البيت كبيرا · يطل على الشاطىء · ونوافذه مضيئة ، وحوله سور مرتفع · وبوابة خشبية مفتوحة · وداروا حول البيت · ونظروا من البوابة · وكان عطر الليمون يفوح قويا فى الجو · وكانت هناك أيضا أشجار جوافة متناثرة داخل السور · وممر ينتهى الى باب البيت فى الداخل حيث وقف الحنطور · واستداروا الى الساحة الواسعة · وكانت أشجار النخيل كثيرة متفرقة · وجلسوا تحت نخلتين متجاورتين ·

وجاءت عربة حنطور · ودخلت من البوابة · وتبعتها أخرى ·

ونهضوا · وتقدموا قليلا · ووقفوا تحت النخيل القريب من السور · ولم يروا شيئا · وعادوا الى مكانهم تحت النخلتين ، وهمس عبد الستار :

ـ ألم أقل لكم ؟ لابد أن أمرا جعله يأتى · انهم لا يتزاورون فى البيوت مثلنا ·

ـ لو باع أحدهم سنعرف · لا شىء يختفى طويلا ·

ـ هذا ما يريدونه · يصيدون أمثالك ·

واستلقى عبد الستار على ظهره مسندا رأسه لجذع النخلة ·

كان الجو دافئا والتراب ناعما · وتسلق بركات نخلة مائلة · وتقرفص على جذعها ووجهه فوق ركبتيــه · وراح يحدق نحو البيت ، وقال عبد الستار :

ـ فعلها الحاج بيومى منذ خمس سنوات · لو تتذكرون · كانوا يقولون ·· الحاج بيومى يبيع · ما من واحد يقابلك الا ويقول لك · الحاج بيومى يبيع · سمعت الخبر يومها أكثر من عشرين مــرة · وكنا واقفين على المحطــة فى انتظــار قطــار البضاعة · كان معى احمد الجزار ومهران · وعندما جاء تعلقنا بالعربات · وماذا رأينا ؟ أكياس لا أول لها ولا آخر وكلها ·· الحاج بيومى · آه · ما من واحد فى الناحية الا وكان يجرى بأكياسه الى المركز · وكان باب مخزنه مفتوحا على سعته طول النهار وحتى منتصف الليل · وكلوبات هنا · وهنا · أنا أيضا بعت له · لم يرد أحــدا · كان يقول : « الأمــر لله ·· الموسم بطوله ولا نراكم الا الآن · حين تضيق الدنيا فى وجه عباد الله » · كان يدفع بكمبيالة بعد شهر ·· لم يدفع حتى عربونا واشترى بأقل من السعر بنصف جنيه · آه ·· وكم واحد فى المركز كانوا يعرفون ان له مخزنا آخر فى المديرية · وحتى هؤلاء ·· هل كانوا يظنون يومها انه ينقل أكياسه الى هناك · اسبوعان وفرقع السعر خمس جنيهات مرة واحدة ·· يقولون انه لم يضرب أحدا على يده · والرجل حر يبيع أو ينقل أكياسـه ·

ـ وكيف عرف ان السعر سيرتفع ؟

ـ من يدرى · ربما كان كان يومها يبيع ولا ينقلها الى المخزن الآخر · ما زال الكثيرون للآن يظنون ذلك · غير أن الأمر · ايه · ما كان ليشترى أيامها كل هذه الكميات · وعلى الحساب · العلم عند الله ·

رقدوا تحت النخلتين · وكان القمر سـاطعا · وسعف النخيل يهتز خفيفا دون صوت · وانزلق بركات فى هدوء من فوق النخلة · كان قد رأى الكلوب والمقاعد عندما خرجوا بها من البيت

الى الأشجار · ثم رآهم الثلاثة الذين كانوا بالحظور وكان معهم اثنان آخران ·

سار فى اتجاه البيت · وكان يدور مع السور · وعندما سمع الأصوات فى وضوح · مد يده وأمسك حافة السور · ورفع جسده · كانوا يجلسون على مرمى حجر منه · والكلوب معلق بنتوء بارز فى الشجرة وضوؤه ينبعث خلال فروع الأشجار ·

اتكأ على كوعيه وأسند وجهه الى حافة السور · كانوا يضحكون · وابتسم هو أيضا · كان الحاج محرز يحكى شيئا ويضرب ركبتيه بيديه · ويتأرجح فى مقعده · ثم وضعت منضدة أمامهم · وكان الولد الذى جاء من البيت يقف ومعه براد الشاى وبجواره بنت صغيرة تحمل الصينية · وسمع بركات صوت الشاى عندما صبه الولد فى الفنجان · ورأى بخاره يتصاعد رقيقا · والتفت الحاج محرز فجأة ونظر اليه · والتقت نظراتهما ، وابتسم بركات وحك صدغه فى يده · وظل الحاج يحدق نحوه دون أن يبتسم ·· وبدا أن رفاقه لم يتنبهوا للأمر · وأحس بركات بالخدر يسرى فى ذراعيه · وتحامل فى صعوبة · وتقوس جسده قليلا ، وكان يرتكز على أصابع قدميه المندسة فى شقوق بالسور · وابتسم مرة أخرى · وانتبه لحركة خفيفة وراءه · وأراد أن يلتفت · ثم أحس برأسه ينفجر ويتطاير · وهوى الى الأرض · ورأى عصا تحلق ، ورجلا يتحفز ويدمدم فى غضب · وتدحرج مبتعدا · ثم قفز واندفع يعدو · كان يجرى مترنحا ورأسه بين يديه · وكان يمسك زفراته بقوة · وعندما أصبح وسط النخيل أخذ يتأوه · ووقف تحت النخلة المائلة يتلفت باحثا عن رفاقه · ثم سمع صوت عبد الستار يناديه · كانوا يقفون هناك عند رأس الحارة يشيرون اليه ، وانفجر فجأة عندما اقترب منهم :

ـ دمى ساح يا عم عبد الستار ·

ومد يديه الملطختين نحوهم · وكان لا يزال يحس بقطرات

دافئة تنزلق على رقبته . وأمسكوه من تحت ابطيه . وابتعدوا مسرعين .

ـ تتركونى وتجرون .

ـ لم نتركك .

ـ ومن قال لك أن تذهب ؟ كنا تحت النخل بعيدا فى أمان الله .

وتوقفوا عند دكانة مفتوحة . وتحسس عبدالستار الورم ، وكان كالليمونة .. والدم يلطخ كتف الجلباب . وغسلوا رأسه ووضعوا قليلا من البن فوق الجرح .

وعندما وصلوا الى المقهى نظروا اليه مترددين . وقال عبد الستار انه سيبحث عن عربة ويعودون . فالقطار لن يأتى قبل ساعة .

وقال بركات انه بخير . وكان واقفا ينظر اليهم ، ثم قال فجأة :

ـ كان سيكلمنى . آه والله يا عم عبد الستار . عيناى فى عينيه . الحاج محرز . رجل طيب وأمير . وكان سيكلمنى لولا ابن اللئيمة . من الذى ضربنى ؟

ـ ومن يعرف . رأيناه وناديناه عليك .

وتركهم . ودخل من فتحة السياج . وتبادلوا النظرات ثم تبعوه . وربطوا له رأسه بمنديل . واسترخوا فى ركنهم بالطرقة .

كان الزجاج مفتوحا . والضوء يتدفق قويا . والأصوات تأتى واضحة من الداخل .

وهمس عبد الستار :

ـ الوقت متأخر . لابد أنه سيقضى ليلته هنا .

ـ من ؟

ـ الحاج محرز . يتناول العشاء هناك .. ثم يأتى لقضاء السهرة . وأين سيذهبون ان لم يأتوا الى هنا ؟

(٦)

كان القطار واقفا بالمحطة ينفث دخانا كثيفا استعدادا للرحيل .. وبدا السائق فى القاطرة أمام اللهب يجرف الفحم ويقذف به الى النار .

قال عبد الستار . وكان يقف مستندا لسياج الطرقة بعيدا عن ضوء النافذة :

ـ هه . ماذا تقولون ؟

وتبادلوا النظرات . وقال واحد منهم :

ـ ما دمنا قد جئنا . ننتظر قليلا .

ـ هذا آخر قطار .

ـ وماذا لدينا فى الخرابة البلد لنجرى اليه .

ـ آه .. ونأخذ عربة .. انها تمر كثيرا هذه الأيام .

والتفتوا الى بركات فى الطرقة ، وتمتم بركات فى صوت خافت :

ـ أنا بخير .

ظلوا واقفين حتى ابتعد القطار . وساروا قليلا فى الساحة . وتحسسوا أكياس القطن المحملة فى عربات الشحن وقرأوا الأسماء فوقها . ثم عادوا واستلقوا فى الطرقة .

ـ كل مرة تقولون عربة ٠
ـ كان القطار أمامك ٠

نادرا ما تمر احدى العربات فى هــذا الوقت المتأخر ٠ ويعرفون أنهم فى النهاية سيأخذونها مشيا ٠ غير أنهم لن يغفروا لأنفسهم أن يحدث شىء ما وهم ينعمون بالراحة فى بيوتهم ٠

قال عبد الستار :

ـ سأبحث عن شىء نتعشى به ٠

وخرج من فتحة السياج ٠ وتبعه الآخرون ٠ وقال بركات انه سينتظرهم ٠ وأسـند رأسـه للجدار ، وظـل يحدق نحوهم بعينين نصف مغمضتين حتى اختفوا من الساحة ٠

حين عادوا وجدوه نائما ٠ وكان صوت شخيره مرتفعا ٠ وغيروا من وضع رأسه حتى خف الشخير ٠ وساروا بلفة الطعام الى احدى عربات النقل المكشوفة ٠ كانت تقف بعيدا فى نهاية قضبان الاحتياطى ٠ وكانوا يأكلون عندما رأوا بركات يتعثر فى الساحة ٠ ونادوه ٠

ـ أنتم هنا والحاج محرز فى المقهى ٠
ـ ألم أقل لكم انه سيأتى ٠

وعادوا بما تبقى من طعام الى الطرقة ٠

اختلسوا النظر واحدا بعد الآخر من جانب النافذة ٠ كان الحاج محرز جالسا وظهره اليهم ٠ وقد وضع الطربوش على مقعد بجواره ٠ وكان يجلس معه الحاج بيومى وتجار آخرون من الناحية ٠ ووقف « منعم » السـاقى عند منضدتهم بسترته البيضاء وربطة العنق السوداء ٠ وخلفه ولد يحمل الطلبات ٠

جلسوا فى الطرقة تحت النـافذة ٠ كانت الأصوات تأتى واضحة من الداخل ٠

ـ يتحدثون فى كل شىء ولا يتحدثون عن الأسعار ٠
ـ أتريدهم أن يتحدثوا عنها بجوار النوافذ ؟
ـ ايه ٠٠ كثيرا ما يفعلونها ٠

مد أحدهم رأسه فى حذر · وسقط الضوء على جانب وجهه وهو يحدق باحدى عينيه داخل المقهى ·

ــ أترى منعم ؟

ــ آه ·· هناك ·

ــ عند الحاج محرز ؟

ــ لا ·· عند الباب ·

كانوا جالسين عند قدميه ·· يحدقون فى الجزء الذى سقط عليه الضوء من وجهه ·

ــ هه ؟

ــ الحاج محرز يدخن الشيشة ويضحك ·

ــ ومنعم ؟

ــ ما زال عند الباب ·

ــ وماذا يفعل هناك ؟

ــ وما يدرينى · الحاج بيومى يهمس فى اذن الحاج محرز ويضحكان ·

ومد وجهه قليلا · ولمع أنفه فى الضوء ·

ــ ألم يقترب منهم ؟

ــ انتظروا ·· انه قادم · ها هو · سأناديه ·

ــ دعه الآن · فيما بعد ·

استدار منعم دون أن يبدو انه رأى شيئا · كان يعرف بوجودهم فى الطرقة · وقد تعمد عبد الستار أن يريه وجهه ويلقى له بالتحية من بعيد فى بداية الليل ، وقال عبد الستار للرجال معه انه صديقه · وكثيرا ما يرسل اليه من حين لآخر بطتين أو أكلة سمك · رأى منعم الوجه يتلصص بنظراته عند ركن النافذة · وكان يختفى ويعود · ثم رآه وقد بدا مستديرا كاملا فى فراغ النافذة · ثم ظهرت كتفاه ، وكان يقبض باحدى يديه على قاعدة النافذة ، ويشير اليه بطرف اصبعه اشارات سريعة غامضة ·· والتفت منعم أخيرا اليه · وابتسم الوجه فجأة · واختفى ·

سار منعم متمهلا الى الخارج ، ووقف ويداه خلف ظهره عند ملتقى الطرقتين الأمامية والجانبية • نهض عبد الستار متقدما نحوه وتبعه الرجال متباطئين •

قال عبد الستار :
ـ مساء الخير يا عم منعم •

لم يلتفت منعم اليه • وظل ينظر الى الرجال القادمين وراءه. حتى وقفوا على بعد خطوتين منهما ، وقال في صوت خافت صارم :
ـ ماذا تفعلون هنا ؟

قال عبد الستار مرتبكا وهو يلتفت للرجال وراءه :
ـ كنا ننتظرك يا عم منعم •
ـ وماذا تريدون ؟
ـ لا نريد أن نتعبك معنا يا عم منعم •
ـ ماذا تريدون ؟
ـ ربما كانوا يبيعون الآن ؟
ـ يبيعون أو لا يبيعون •
ـ لن يرضيك يا عم منعم •
ـ ما هو الذى لن يرضينى ؟
ـ لن يرضيك أن تتركنا •
ـ وما هذا ؟

وأشار الى بركات • وكان يتلصص بوجهه من خلف الرجال. وقد بدت بقعة كبيرة داكنة على الرباط حول رأسه •
ـ بركات •
ـ ما شاء الله • ومن فلق رأسه ؟

وضحكوا • واقتربوا منه ، وقال عبد الستار :
ـ هذه العربات فقط يا عم منعم •
ـ أى عربات ؟

ـ هذه المحملة بأكياس القطن • كانت خالية من يومين
ربما يبيعون ؟

ـ واذا كانوا يبيعون ؟

ـ لن يخسر أحد شيئا اذا قلت لنا •

ـ سأقول لكم شيئا • لابد اننى قلته لك من قبل • انهم
هنا لا يعرفون • لا احد يعرف •

ـ وتصدق ذلك يا عم منعم ؟

ـ لعل أحدكم يعرف الحاج عويضة • آه • انه من
بلدتكم • كان يتاجر بالآلاف • وماذا يفعل الآن ؟ هل رأيتموه ؟

ـ آه •• نعرفه •

ـ كل أسبوع يسافرون ويعودون ولا يعرفون شيئا • هناك
فى العاصمة تجار كبار • اكبر منهم بكثير • مئات الألوف بين
أيديهم • وماذا تكونون ؟ مئات الألوف • وطول الوقت يخمنون •

ـ مئات الألوف •• ويخمنون يا عم منعم ؟

ـ آه يخمنون •

ـ ألم يتحدثوا الليلة عن الأسعار ؟

ـ لا أحد هنا يتحدث عن أسعار •

ـ والحاج محرز ؟ انه بالداخل •

ـ وما شأنكم • ماذا تفعلون هنا ؟ لا أريد أن أرى أحدا
يمد وجهه من النافذة • هل تسمعون ؟

واستدار متمهلا ، ودخل المقهى •

همس عبد الستار :

ـ يبدو اننا أغضبناه •

ـ ومن فعل ؟ اننا لم نقل شيئا •

استلقوا فى الطرقة مرة اخرى • كان الليل هادئا • وضوء
القمر يسطع فى الساحة الخالية • ولأنهم لم يتعودوا السهر
طويلا بعد تناول العشاء فقد غفوا سريعا • وظل بركات يقاوم

النعاس . كانت الأصوات لا تزال تأتى من الداخل . غير أنه كان يسمعها مشوشة غير واضحة . وعندما كان يغمض عينيه كان يحس بنفسه يهوى فى فراغ معتم .



جمع منعم والأولاد المفارش من فوق المناضد فى نهاية السهرة . وكان يغلق نوافذ المقهى . وعندما اقترب من النوافذ الجانبية سمع صوت الشخير المتقطع . وصاح :

ـ أما زلتم هنا ؟

توقف صوت الشخير مرة واحدة . ثم نهضوا متعثرين ، وتمتم عبد الستار :

ـ عم منعم ؟

ـ آه عم منعم .

ـ هل ذهبوا ؟

ـ من هم الذين ذهبوا ؟

وتنبهوا الى الصمت العميق حولهم . ورأوا منعم يطل عليهم من النافذة . وانزلقوا واحدا وراء الآخر من فتحة السياج ، وتمتم منعم ساخطا :

ـ وحطمتم السياج أيضا ؟

عبروا الساحة الى الطريق الزراعى . ووقفوا هناك فى انتظار سيارة نقل تمر . وهوى بركات فجأة على ركبتيه ممسكا برأسه .. تلفتوا فى ذعر . ثم أمسكوه من تحت ابطيه وساروا مهرولين نحو موقف عربات الكارو . وكانت ترابط خلف مقهى

صغير يطل على محطة الاتوبيسات · كانت الشوارع خالية · والبيوت والمقاهى مغلقــة · والقطط والكلاب تمرق بسرعة الى الحوارى ·

أيقظوا أحد العربجية · كان راقدا على عربته · نظر فى فزع الى بركات ، ثم حدق فى وجوههم · وكان يربط الحصان الى عريش العربية ، ثم سألهم :

ـ ماذا به ؟

حملوا بركات الى سطح العربة ، ووضعوا لفة الحبال تحت رأسه ·· تكوم مرتعشا ·· وسارت العربة الى البلدة ·

(٧)

عندما تخف حدة الشمس · كان بائعو الحلوى يظهرون على السكك الرفيعة بين الحقول · كانوا يأتون واحدا وراء الآخر ، وينتشرون · وقد حمل كل منهم جوالا فارغا على كتفه · وعلى الكتف الأخرى يتدلى طرفا خرج ممتلئان · وأحيانا يأتى أحدهم راكبا حمارة عجفاء بكرش منتفخ وقدماه تجرجران على الأرض ، ويكون ممسكا بعصا الحلوى الطويلة وقد ثبتها الى جانب الحمارة بركبته ·· وتظل العصا مرفوعة فى استقامة ، وبطرفها شخشيخة من الصفيح الصدىء · تصدر صوتا مكتوما من حين لآخر · كانوا يعلقون بها ـ خلال أيام جمع القطن ـ شرائط طويلة من الورق الملون · كانت الحلوى لزجة تلتف فى طيات متناسقة حول العصا ·· وكانت أصناف أخرى داخل الخرج ·

وفى تلك الأشجار رقد الرجال بعد أن أعدوا النقلة الأخيرة · كانت المقاطف الضخمة ممتلئة فى انتظار عودة النسوة من العزبة بالأكياس والحمير · وكانت ندف القطن عالقة بفروع الأشجار وبأطراف الحشائش على جانب الطريق وبذقون الرجال

وأهدابهم . وعندما سمعوا صوت الشخشيخة رفعوا رؤوسهم ، وراحوا يرقبون العصا الطويلة وهى تتحرك وسط الأشجار . واندفع الأولاد الى عيدان الحطب فى الأحواض . كانوا يجمعون ما يزال عالقا بها من بقايا القطن ، وينزعون ما بداخل اللوزات الجافة المغلقة من قطن عفن ويفردونه بين أصابعهم المدربة . ثم كانوا يقبعون أخيرا على جانب الطريق وقد ملأوا حجورهم وراحوا فى سرعة ينظفونه من الشوائب الكثيرة العالقة به .

ويصل البائع الى حيث يرقدون . وخلفه جمهرة من الأولاد ـ هؤلاء الذين اشتروا من قبل بما جمعوه واستمروا فى مسيرتهم وراءه ـ كان يجذب الحلوى دون أن يسأل ان كانوا يريدون أو لا يريدون ويلفها على اصبعه .

ـ اعط كل ولد حتة . وهات لنا أيضا .

انهم عادة أسخياء خلال هذه الأيام . كانوا يعطونه نقودا ثمنا للحلوى . ثم يغرف الواحد منهم ملء كفيه من القطن ويدسها فى جواله .

وفى عودته تكـون بقية من الحلوى لا تزال لاصقة بطـرف العصا ، ويكون الجوال قد امتلأ بالقطن . ويناديه أحدهم من الأحواض القريبة .

ـ هات يا رجل . أترجع بها ؟

وتظل أصوات الشخاشيخ تدوى متناثرة بامتداد الحقول حتى تختفى الشمس خلف قمم الأشجار العالية .

(٨)

أحيانا يمر الموسم هادئا ٠ تتذبذب الأسعار بعض الوقت ، ثم تستقر فى النهاية وتكون الفروق طفيفة ٠ ويسترخى التجار فى ظل المحطة يرقبون الانفار وهم يقطرون العربات المحملة بأكياس القطن الى قطار البضاعة ٠ وكان هؤلاء الذين لا يرعاهم الحظ يحصون خسارتهم القليلة ويقولون :

ـ ايه ٠٠ الحياة تأخذ وتعطى ٠

كانت لديهم شكوكهم دائما ، وكانوا يتعاملون كما لو ان الحياة تخادعهم ، وكأن شيئا لا يفهمونه سيظهر فجأة ٠٠ وعلى نحو غامض ويطيح بكل شىء ٠

وعندما تأخذ الاسعار فى التذبذب يظهر عويضة فى الشوارع ٠ انه دائما فى البلدة لا يلتفت اليه أحد ٠ ثم فجأة ينتبهون الى وجوده بينهم ٠

عادة يكون قادما من الخلاء ، ويمر بالمقهى فى السوق ٠ وتطرف عيناه قليلا فى مواجهة الضوء ويرفع يده بتحية سريعة دون أن ينظر الى أحد ، ويكون هناك دائما من يقول :

ـ أهلا عويضة ٠

لقد هزل كثيرا ، وجف وجهه وضمر ، وانتثرت فوقه بقع قاتمة ، وملابسه التى لم يغيرها منذ ذلك العام أصبحت واسعة مهلهلة فوقه ، وجيوبه منتفخة دائما بالأشياء ٠

كانوا يشيحون بوجوههم بعيدا عندما يرونه مقبلا ٠

« لا تنظر الى عينى رجل يموت » ٠

كانوا يرون انها مسألة وقت ٠ مجرد أيام وينتهى ، ويتخيلون موته دائما ويقولون :

« انه يتجول كثيرا فى الخـلاء ، ولا ينظـر أبدا الى مكان قدميه » ٠ وقد تمضى أيام ولا يرونه فى الشوارع ثم يسمعون ذات صباح أنهم عثروا عليه طافيا على سطح النهر بعيدا حيث لا يتوقع أحد ، وقد تعلقت جثته بجذر شجرة ، أو انه سقط فى بئر عميقة ، ويذهب الناس ويأتون ، ويقفون بجوار البئر ليتحدثوا ، ثم حين تجف البئر أو تفوح الرائحة ٠٠

كانوا يقولون ان فى الرجل شيئا لا يفهمونه يجعلهم دائما يتخيلون نهايته على هذا النحو ٠

« لا أحد يكره طبعا ، ومن يستطيع » ؟

وفى المقهى كان يحلـو للتجـار ـ عندما ترق العتمـة فى الخارج ـ أن يثرثروا وكأنهم يسيرون على حافة الهاوية :

ـ من يعرف ؟ اليوم هكذا ٠٠ وغدا ؟

ـ ويحسدوننا على حياتنا ٠ ها هو فلينظروا اليه ٠

كم عام مرت ؟ عشرة ٠ انهم ما زالوا يؤرخون بذلك العام ٠

ـ بعد تلك السنة ما أعادها الله علينا ٠

ـ دعونا من هذه السيرة ٠
ـ هؤلاء التجار يقولون انهم وحدهم الذين نالتهم المصيبة ٠
ـ ولا بيت الا ومسه الخراب ٠
ـ كل ما حدث كان من غضب الله على هذا البلد ٠ لا أحد هنـا يرعى حرمة ٠٠ يسيرون أمـام بيوت الله يغنون ويدخلونها بنجاستهم ٠ هل تذكرون الشيخ داوود عندما كان يسحب ذلك الولد الى المئذنة ، وكان يخدعنا طوال الوقت ويقول انه يدربه على الآذان ٠ ويقولون ان هذه البلد سترى خيرا ٠

كان عويضة واحدا من كبار تجار القطن فى الناحية ٠٠ وكان له بيت فى البلـدة ٠ وبيت فى المركز ٠ قليـلا ما كان يأتى الى البلدة ٠ وفى المرات التى جاء فيها ليعقد بعض الصفقات كان يمرق مسرعا بحنطوره دون أن يقترب من بيته المغلق ٠ غير أن الأهالى ـ عندما يقتضى الأمر أن يحصوا الرجال الذين يفخرون بهم فى البلدة ـ كانوا يعدونه فى أول القائمة ٠ كان دائما خارج الحدود التى يألفونها ٠ وكان الحظ يسير بين قدميه ٠ وعندما كان التجار الآخرون يجرون فى فزع الى القطارات ، يقف هو هادئا بالمقهى الكبير فى المركز ينظف طربوشه بكمه ، ويقول :

ـ ايه ٠ دعوا الفئران تجرى ٠٠

وحين يمر الموسم هادئا ٠ كان يبصق من فمه لاعنا :

ـ أتقولون ان هذه تجارة ؟ وماذا فعلنا ؟

فى ذلك العام هبطت الأسعار فى قفزات كبيرة ٠
ـ فى يوم وليلة ٠

كانوا يحكون :

كان القطن متناثرا فى الشوارع ٠ وعلى الطرق الزراعية ، ويتساقط من العربات والقاطف ومن الأنفار بين الخطوط ٠ وعلى

المحطة كانت الأكياس فى العربات قد اغبر لونها وتمزقت وسال القطن منها ·

وبدت البلدة ـ التى كانت صاخبة دائما فى مثل هذه الأيام ـ وكأنها مهجورة · كانت الابواب تغلق مبكرا · وأضـــواء قليلة تنبعث من دكاكين البقالة والحدادة · وفى المقهى الكبير بالمركز وقف عويضة يصيح :

ـ دعوهم يفعلون · أنا أعرف اللعبة · أعرفها تماما ·

ـ أى لعبة يا عويضة ؟

ـ سترون · عندما لا يبقى غير الرجال ·

كان شغوفا بمثل هذه اللحظات · يقف مرتكزا على عصاه يضحك صاخبا ، ووجهه محتقن وطربوشه يميل للوراء ، وشعره الأسود اللامع ممشط فى عناية · أشار بذراعه نحو الباب :

ـ القطن كالتراب · من يشترى ؟

وتبعه بعض التجار · غير أنهم بعد أيام كانوا يبيعون هم أيضا ·

ـ وأنت معه لا تعرف رأسك من قدميك ·

ظل وحده فى الناحية لا يبيع ، ثم أخذ يشترى أيضا · وفتح باب مخزنه الضخم طول النهار · وهبطت الأسعار مرة أخرى ، ولم ترتفع بعد ذلك ·

ـ هذه المرة لم يتحملها ·

ظل يخرج كعادته · فى الصباح يتناول قهوته فى المقهى الكبير بجوار نافذة مفتوحة ، وفى المساء بعد أن تعتم الشوارع يأتى مرة أخرى · وكان يبدو خلال تلك الأيام متمسكا بعادته لا يتأخر أبدا · وكان يعتنى بملابسه والطربوش لا يزال يميل للوراء ·

غير أن التجار فى المقهى الكبير كانوا يصمتون فجأة عندما يرونه قادما ، ويحدقون نحوه ٠ وتطرف عينه اليسرى ويجعد ما بين حاجبيه ــ وهى عادة لازمته بعد ذلك ــ انهم جميعا قد نالتهم الخسارة ٠ أما هو فقد خسر الكثير ٠ وكان الصمت يطول بينهم تتخلله سعلات قليلة ، ثم ينهض فجأة ويترك المقهى :

ــ كان ذلك سيحدث يوما ٠

ــ آه ٠ طبعا ٠ لو عرف كل واحد حدوده ٠

وكان يسير يوماً على المحطة فى الصباح وعصاه فى يده ، ورأى القطار قادما ٠ وقف ساكنا يحدق فى دهشة الى دخان القطار الكثيف ٠ ثم فجأة قفز اليه وهو يتحرك وذهب ٠

وتحدثوا عنه أياما قليلة ٠ وقالوا انه كان يبدو دائما فى كل ما يفعله وكأنه سيرحل يوما ٠ فهو لم يكن من أهالى البلدة الأصليين ٠ وقد جاء وهو طفل مع أبيه الذى كان تاجر قطن هو الآخر ٠ وكان له شقيق فى العاصمة ، ولابد أنه ذهب ليقيم عنده ٠



خمس سنوات وربما أكثر قليلا ٠

كان يقف أمام بيتــه فى المركز يشرف على طــلاء الواجهة والنوافذ ٠ وقد أعطاها لونا أخضر ٠

ونظروا اليه أياما فى فضول وقد بدا فى هيئته الجديدة غريبا عليهم ٠ كان شديد النحول ٠ وتلك النظرة المعتمة التى تضطرب فى عينيه حين كان يرفع رأسه فجأة منصتا ٠

وفى الأيام الأولى من عودته كان يذهب الى المقهى الكبير فى الصباح والمساء ، وقد طوى جريدة تحت ابطه ٠ كان يبتسم

كثيرا · ويحيى الكثيرين · ولم يستمر الأمر طويلا فسرعان ما كف عن الذهاب الى المقهى ، ثم ترك المركز وجاء ليقيم فى بيته بالبلدة ·

ويقولون ان لديه ما كان يستطيع أن يبدأ به من جديد ، غير أنه لم يفعل ·

فى الصباح كان ينطلق الى خارج البلدة ويسير بين الحقول ، ويقضى فترة الظهيرة نائما تحت الأشجار · كان معفرا دائما ، والطين يغطى حذاءه ويتناثر على ملابسه · وكان يستجيب سريعا لتقلبات الجو · ففى الصيف عندما تكون الشمس متوهجة كان وجهه يتألق بحمرة خفيفة ، ويبدو بشوشا ضاحكا ، ويقبض يديه لاهثا كطفل ، وكان ينحنى أمام فوهة ماسورة يتدفق منها المـــاء ويضع عصا فى طريقها ، ويرقب فى شغف وقد عض شفته الرذاذ المتطاير ، ثم يبلل وجهه ويمضى ·

وفى الشتاء حين يكون الجو معتما كان وجهه يبدو رماديا باهتا . ويغمغم غاضبا وهو يمر سريعا فى الشوارع وقد انكمش وطوى كتفيه فى حدة ·



وضع الحاج مدبولى وعاء النار أمام باب الدكان ، ونثر قليلا من البخور ، وكان جالسا ينصت لطرطقة حبات الملح ورذاذ النار يتطاير خفيفا ·

وجاء عويضة · كان يسير متمهلا ، وابتسم وجلس ·· فقفز الحاج مدبولى والتوى وجهه فى غضب :

ـ أعوذ بالله · ألم تجد غير هذا المكان يا عويضة ؟

ونفض جلبابه فى عنف ، وترك الدكان ومضى · ومد عويضة قدميه الى جانبى النار ·



وضع عثمان الحلاق فتيلة القطن فى الجرح ، ثم لفه بالقماش ، وقال للعجوز التى كانت تبتهل فى صوت خافت أن تترك الولد يستريح ·· وخرج ·

كان بركات يصحو فجأة ، ويجلس فى الفراش محدقا دون أن يتبين شيئا · وتأتيه أمه بوعاء الشوربة ، فيتناوله بيدين مرتعشتين ، ثم يغط فى النوم ·

وكان عثمان الحلاق يأتى كل يوم ويغير الفتيلة ويمضى ·

وفى اليوم الرابع تنبه بركات على آذان المغرب · ظل راقدا ينظر حوله فى المندرة المعتمة · ثم نادى أمه · جاءت مهرولة · سألها ان كان أحد قد جاء وهو فى رقدته ؟

وقالت ان أحدا لم يأت ·

نهض مستندا على كتفها · وأجلسته فى الحوش ·

وقال لها ـ بعد أن تناول طعامه وشرب الشاى ـ أن تذهب الى بيت الحاج مدبولى وتسأل عن الأخبار ·

لفت المرأة الطرحة حول رأسها وخرجت ·· وغابت قليلا ثم عادت · وقالت أنهم باعوا ·

ـ باعوا ؟

صرخ بركات :

ـ متى ؟

ـ ليلة أمس ·
ـ وأنا هنا نائم · وبكم باعوا ؟
ـ لا أعرف يا بنى ·· أين تذهب ؟
ـ اسكتى يا وليه ·

ترنح قليلا وهو ينهض · ولف شالا من الصوف حول رأسه وكتفيه وخرج · وتبعته أمه حتى آخر الحارة ·

رأى الضوء فى بيت الحاج مدبولى · وسمع صوت عبد الستار فى المندرة · وقف بباب البيت المفتوح · كان الحوش الواسع خاليا ونظيفا · وقد وضعت أريكة فى المدخل وفوقها السمبلة فى الكوة ·
ـ عم عبد الستار ··
ـ ادخل يا بركات ·

طوى الحاج مدبولى ساقيه تحته وأدار وجهه الى النافذة ، وقال عبد الستار :
ـ تخرج ورأسك مفتوح يا بركات ؟

جلس بركات مطرقا ، وقال عبد الستار :
ـ السعر نزل جنيهان فى اليومين الماضيين ·

نظر بركات حوله · وأرخى الشال حول رقبته ، وتمتم :
ـ جنيهان ؟

ثم زفر ، واهتزت كتفاه قليلا ، وتمتم مرة أخرى :
ـ جنيهان يا عم عبد الستار ·

ووضع يديه بين ساقيه وضغطهما :

ـ العوض على الله · لو انك سمعت كلامى من اسبوع وكار السعر زيادة ثلاثة جنيهات ·

التفت الحاج مدبولى ورمقه فى حدة ، وقال عبد الستار :
ـ نصيب يا بركات ·
ـ آه ·· نصيب ·

وقال الحاج مدبولى مزمجرا :
ـ اعطيه حسابه يا عبد الستار ·

نظر بركات اليهما ، وقال عبد الستار :
ـ لك عندى ثلاثمائة جنيه ·· وثلاثون جنيها نصيبك ·

وأخرج كيسه ·

ظل بركات صامتا ، ثم قال فجأة :
ـ كيف ؟ والذى اشتريناه على الحساب ·· أليس لى نصيب فيه ؟

بصق الحاج مدبولى فى عنف من النافذة ونهض · قال لعبد الستار :
ـ هذا ما قلته لك ·· لم تسمع كلامى ·

وخرج ··

قال عبد الستار :
ـ ما اشتريته على الحساب كان فى ذمتى · كنت سأدفع ثمنه من جيبى لو خسرت ·

لف بركات النقود فى منديل ووضعه فى جيبه ، وخرج ·



وفى البيت انفجر غضبه · وقف ممسكا بضلفة باب المندرة يرجها فى عنف :

ـ وكنت أقول معلمين أولاد معلمين · ودفعوا من فلوسى العربون وكسبوا ·

وقالت أمه :

ـ الجرح يا بنى مفتوح · ثلاثون جنيها خير وبركة ·

ـ آه · لو انى اشتريت لحسابى ·

ـ يا بنى مالنا وحكاية القطن ·· خلينا فى اللبن ·· نعمة من عند ربنا ·

ـ اسكتى يا وليه ·

أسكت لغاية ما تضيع تحويشة مهرك ·

(٩)

كان المقهى فى السوق مزدحما ، وبعض التجار جالسون فى الداخل · لقد باعوا جميعهم · ظلت العربات خلال اليومين الماضيين تدرج فى الشوارع محملة بالأكياس الى خارج البلدة · وطوى التجـار ما تبقى من فوارغ وقذفوا بها تحت الأسرة · وكنسوا أفنية بيوتهم ورشوها بالماء · وبدا أنهم يريدون أن ينتهوا سريعا ليعودوا الى حياتهم المعتادة · غير أنهم ظلوا يتابعون الأسعار ·

والآن وقد عرفوا أن السعر قد انخفض جنيها مرة أخرى ، انفرجت أساريرهم فى هدوء · وطلب بعضهم شايا على حسابه للموجودين فى المقهى ·

وحين رأوا أحمد الجزار قادما ضحكوا وهللوا · ضحكوا غير شامتين · فهو من دونهم جميعا قد ركب رأسه ولم يبع قطنه حتى الآن · وقد بادلهم الضحك وجلس · كان ما لديه لا يزيد عن عشرة قناطير · كان طول الموسم يشترى ويبيع ، وقد احتفظ بالعشرة قناطير حتى يأتى سعر طيب · وكان يستطيع لو باع

بالسعر الجديد أن يحقق مكسبا · ظل يستمع الى نكاتهم ويضحك ، ثم قال :

ـ غدا نتوكل على الله ·

ـ آه غدا · وربما نزل السعر قبل أن تصل الى بيتك الليلة ·

وارتفع صوت من ورائهم :

ـ أشترى منك ·

التفتوا · كان بركات جالسا على مقعد بجوار الباب ·

تبادلوا النظرات · وصاح واحد منهم :

ـ ولم لا · بع له يا احمد ·

تمتم أحمد الجزار :

ـ أرميهم فى البحر ولا يقال اننى بعت له ·

قال بركات فى هدوء :

ـ سأوفر عليك أجر نقلهم للمركز ·

صاح أحدهم :

ـ يا عينى على المعلمين ·

وقال آخر :

ـ أدفع نصف جنيه زيادة فى القنطار ·

ظل بركات صامتا ، وقالوا :

ـ آه · ادفع نصف جنيه وسنجعله يبيع لك ·

والتفت أحمد الجزار أيضا · وبدا الترقب على وجوههم ·

قال بركات :

ـ ولا مليم زيادة ٠

هزوا رؤوسهم فى أسف ، وقال أحدهم :

ـ فرصة ٠ وربما ارتفع السعر بعد يومين أو ثلاثة ٠

شرب بركات كوب الشاى وخرج ٠

كان فى اليومين الماضيين يبحث عن قطن يشتريه ٠ وكان ما معه من نقود لا يسمح بعقد صفقة كبيرة ٠

استعار شمسية قديمة من الجيران ليحمى رأسه الجريح من الشمس ، وركب حمارته ومضى الى العزب ٠

كانت حزم الحطب متناثرة لتجف على الجسور ٠٠ وكانوا يحرثون الحقول ٠٠ لقد باع أكثرهم قطنه وهو لا يزال فى الأرض ٠

وقال بركات ٠٠ ربما كان أحدهم يحتفظ ببعض القطن ٠

وفى العزب التى كان يجمع منها اللبن نظروا اليه فى دهشة ، وكانوا يتساءلون :

ـ تشترى الآن ؟

وفى كل يوم يعود من العزب كان يمر على المحطة ٠٠ لقد هدأت أخيرا ٠٠ وكانت الساحة خالية وآثار الأكياس لا تزال فوق حائط مبنى المحطة ، وعربات الشحن القليلة تقف فارغة على قضبان الاحتياطى وقد علقت ندف من القطن بزواياها وناظر المحطة يغفو على مقعده فى الظل ٠

وكان يقف يوما مستندا بكوعيه الى ظهر حمارته حين جاء القطار · وهبط عبد السلام أفندى المدرس بالبلدة · كان قادما من البنـدر ، وتلفت حوله ولوح بجريدة فى يده ، وصاح بناظر المحطة :

ـ السعر زاد خمسة ·

ورمق بركات بنظرة سريعة ، وتردد لحظة ثم قال له الخبر أيضا ·

ظل بركات واقفا يرمق القطار وهو يبتعد · وكان ناظر المحطة قد عاد الى اغفاءته على المقعد ·

وسحب بركات حمارته ، وفى طريقه مر بعبد السلام أفندى وكان واقفا بمدخل البلدة وحوله بعض الأهالى ·

كتب للمؤلف

● **الكبار والصغار :**

مجموعة قصصية ، الكتاب الماسى ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٨

● **حديث من الطابق الثالث :**

مجموعة قصصية ، دار الكاتب العربى ، ١٩٧٠

● **التاجر والنقاش :**

رواية ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٧٦

● **أحلام رجال قصار العمر :**

مجموعة قصصية ، دار الفكر المعاصر ، ١٩٧٩

صدر عن مطبوعات القاهرة

- اللجنة :
  رواية ـ صنع الله ابراهيم
- ليلة العشق والدم
  رواية ـ ابراهيم عبد المجيد
- القصة القصيرة فى السبعينيات :
  مختارات ودراسة بقلم ادوار الخراط

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٠٠ / ٨٢

دار ماجد للطباعة
٢ شارع بلال بالقصيرين ـ الوايلى

★ محمد البساطى واحد من أهم القصاصين المصريين الذين شكلوا ما يسمى بظاهرة جيل الستينيات .

★ ولد فى احدى القرى القريبة من بحيرة المنزلة وتخرج من احدى كليات التجارة بالقاهرة .

★ بدأ يعرف ككاتب قصة قصيرة منذ كان ينشر قصصه فى الملحق الأدبى بجريدة المساء (١٩٦٢) ، الذى كان يشرف عليه عبد الفتاح الجمل .

★ كتب ثلاث مجموعات قصصية : « الكبار والصغار » ، « حديث من الطابق الثالث » ، « احلام رجال قصار العمر » . كما كتب رواية « التاجر والنقاش » .

★ هاتان الروايتان الجديدتان (المقهى الزجاجى — الأيام الصعبة) تمثلان اضافة فنية جديدة الى ما كتب البساطى من قبل .

★ الرواية الأولى مراقبة فنية شفافة لعالم يحتضر والرواية الثانية رصد فنى بسيط لعالم يحاول الصعود .

